معتز عرفان

رواية

السيرك

دار عرفان للنشر

رواية السيرك

يمنع نسخ أو تصوير هذا الكتاب أو أجزاء منه بأي وسيلة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو تصوير ضوئي أو تسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى دون اذن خطي مسبق من دار عرفان للنشر

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording, or otherwise, without the written permission of Erfan Publishing House

معتز عرفان

رواية نفسية فلسفية

السيرك

ذكريات صحفي عجوز

دار عرفان للنشر
جميع الحقوق محفوظة ٢٠٢٣

-١-

إن من أقمر ليله، تائه بين الذكريات، تلاعبه الكثير من الومضات التي ولت، تسانده عواطف الأحبة ممن بقوا، يتذكر مشاهد الدفء التي عاشها في صغره، يطلب من أبنائه أن يقدموا إليه مشاهد مماثلة، يحن إلى العواطف ودرجة الإحساس بها، يتخيل بعض الأمور، إلا أن التخيل لم يعد كما كان في سابق عهده، فالتخيل يقل مع التقدم في الزمان لأن التكيف يهيمن على الأذهان، وحينها تقل درجة الإحساس وتتضاءل فرص التخيل وتنضب بوادر الشغف التي لازمت الذهن في الماضي، ورغم ذلك لا يعد الأمر مشكلة عويصة، فالشرارة تلاعب العقل بين الحين والآخر، وهو ما يضخ الدماء في العروق.

كنت أحدث نفسي بهذه الأفكار بينما كنت أغادر المكتبة المهيبة المقيمة عند ناصية الشارع الواسع الشهير الموجود في وسط المدينة، كان شعري الأبيض يمنحني رونقا وهيبة تغطي على أخطاء وتهور الماضي، وكانت بعض المشاهد من عملي القديم في الصحافة تجري في ممرات ذهني، وكان التعجب يلاعبني، التعجب من مرور الزمان وتعود الأذهان وطريقة تحول التخيلات إلى واقع وقلة التخيل مع المرور بعد أن تأخذ السيناريوهات سياقا مرئيا وملموسا بشكل من الأشكال.

لقد ساورتني الظنون كثيرا حيال العديد من الأمور، إلا إنها لم تقترب من الأساسيات، فقد كانت الظنون متصلة بالتفاهات، ولكن أمر التفاهات يختلف بين الأناس كما هو الحال مع الأمور الجادة أيضا، فعندما آنست أمي في اكتمال البنية حثتني على العمل

باستمرار لعلني أخرج الطاقات وأسند الغرور قدر الإمكان، لكن الغرور صار عبئا مع التقدم في الزمان.

نحن نقضي ثلاثة أو أربعة عقود في بناء غرور نتخلص منه في نهاية المطاف مجبرين، نقضي كل هذه المدة الطويلة كي نبني شيئا نهدمه بأيدينا وإن لم نفعل أجبرنا على ذلك، إلا أنه لا بأس بذلك، فالسنة لا مفر منها والهيئة تخص الجميع.

نحاول جميعا أن نبهر بعضنا البعض مستخدمين أدوات المال والقوة والعلم والدين والفن والحرفة والتخيل والصفات النبيلة والصفات السيئة والأخلاق واللباقة والجمال والهيئة والزي، وكل منا يعمد إلى بعض الطرق دون الأخرى، إلا أن هناك طرقا أكثر سلامة وصحة وأمانا وصوابا، وتبقي الأقنعة كثيرة والحيل عديدة.

انقطع خط الأفكار في أكثر من مرة بينما كنت أتنقل بين الطرقات كالمشرد، حيث كان الضوء على وشك أن يغادر بيئتي، لكن الانقطاع الذي أثر في دواخلي وقع عند الحارة الرابعة بجوار الممشى الرئيسي المعروف، حينما صادفت فتاة منحتني إشراقا ذكرني بوجه فتاة عرفتها في الأيام الخوالي عندما كنت مراهقا لعينا، إلا إنها قد مرت سريعا بعد أن قالت "مساء الخير جدو"!

كان يبكي بشدة، كانت الدموع تتدفق، وقد لاعبته الكثير من إحساسات عدم الأمان. إنني أمثل ظله، أمثل ما يمثل اللامقبول، أمثل ما يرهق النفس ويلاعبها ويشعلها في الكثير من الأحيان، وها أنا أسمح له بالعودة إليكم لعلني لا أقطع السرد وأسمح بالنثر.

أحبابي القراء وجميلاتي القارئات، لقد عدت إلى منزلي، وها أنا أجلس مرتديا روبي الأحمر، أتحاور مع زوجتي وابنتي وزوجها، أضحك كثيرا حينما يحدثني عن أوهامه وخيالاته وأخبر نفسي بأن العقل يقضي وقتا كي يدرك الواقع ويتكيف معه، لكن الغريب في الأمر يكمن في اللقطات، لقطة الفيس بوك وأنت تسجل نجاحا صادفك اليوم، ترصد لقطة حزن على انستجرام تمثلت في صورة، تبروز لحظة أنت كبيرها أو توهمت أنك كبيرها أو اعتقدت أنها دائمة، رغم أنها لا تمثل نغمة ثابتة، لكن تعبر عن جزء صغير جدا من رسم بياني أنت ضحيته، رسم بياني يعبر عن عنصر صغير بكل تأكيد، إلا أن هذ العنصر مطالب بأن يحقق أمورا ترضي دواخله بينما يعيش مدته القصيرة مقارنة بعمر الكون السحيق.

-٢-

جاء وقت الطعام، وها هي الخيرات تلاعب الأذهان، وقد كنت حماسيا بشدة، فقد كانت الحماسة زاهرة، كانت على وشك أن تغادر جسدي وتخرج إلى العلن كاشفة عما كمن بداخلي طوال هذه السنين، حماسة المراهقين والمراهقات، حماسة الأطفال، حماسة من حصل لتوه علي منحة أو ترقية أو برقية أو وصية، وقد رأيت زوج ابنتي يقف فوق المنضدة كاشفا عما لا يليق، وكانت الابنة تصفق من أجله مانحة إياه نوعا من البريق، وكانت زوجتي صامتة مندهشة تلاعبها أفكار كثيرة، إلا إنها كانت تحرك فكيها لتقدم ابتسامة متقطعة، ورغم ذلك لا بأس ببعض الجدية طالما أن السيرك مزدحم ومتوهج بشكل غريب.

أسبغت على الجلسة لمسة فكاهية عميقة محاولا استعادة أمجاد الماضي والقدرة على نثر النكات، إلا أن الضحك قد قمع بغتة بعد أن حل علينا ضيف جاد. كان بهلوانا متخفيا وراء قناع، ظن أنني كنت عاجزا عن كشفه، لكني كشفت الستار وقتها سريعا وأدركت حقيقة النقاش.

كان صديقا من أصدقاء زوج ابنتي، وكان يعمل في السلك الدبلوماسي معه، لكن الفرق بين الشخصيتين كان واضحا، ورغم ذلك من الضروري ألا ننخدع بالأقنعة والبصمات الأولية في معظم الأحيان.

جلس يتحدث بقوة واضحة، كان صوته مرتفعا، كان يشعر بأنه مركز الأرض، كان ينتقد الجميع ونسي أن ينتقد نفسه، لم يمنح

نفسه لحظة واحدة كي يدرك أنه من البشر، أنه بشري مثلنا، أنه من بني آدم، وكأنه لا يمت لنا بصلة، وكأنه لا يتبرز مثلنا ولا يأكل مثلنا، ألم يمنح نفسه مساحة للتفكر قط؟ ألم يمنح نفسه مسافة للإدراك بعد؟ ألم يعط المفتاح للعقل التحليلي بدلا من العقل الوصفي بأي شكل من الأشكال، ولو للحظات؟

جلسنا نشاهد فيلما لبين أفليك وروزموند بايك، كان فيلما مثيرا مؤثرا، أحسست بمشكلة في أداء أفليك لكن أداء بايك كان هائلا، وقد كتبت عن ذلك الفيلم في جريدة إلكترونية في يوم من الأيام، لكنني لا أتذكر اسمها ولا أتذكر الملابسات التي حوطتني وقتها.

جلس الشاب الدبلوماسي يحدثني بقوة، كان يظهر رأيه حيال الفيلم بعنفوان، كان واثقا متأثرا راغبا في القيادة لا في أن يقاد، وقد تراجعت عن بعض الأمور حيال نظرتي، وقد غفرت له مركزيته، وبدأت في ملاعبته، هل تعرفون لماذا قمت بذلك؟ هل تعرفون السر القابع وراء كل هذا؟

لقد تذكرت نفسي في صغري، تذكرت الغرور والمركزية، وافتكرت حقيقة الزمان، فالزمان يقتل الغرور، يكسر أكثر الناس غرورا، يلقي بهم في الهاوية، يعلمهم دروسا لا تحصي. كن مغرورا، كن مغرورا، ولكن تذكر أن تتحمل العواقب أيها الإنسان، فقد حذرتك، حذرتك، حذرتك، لكنك تجاهلتني، تجاهلتني كما يتجاهل المراهق حبيبته التي عشقها وعشقته من أجل حبيبة زائفة، وكما يتجاهل المتعلم الأحمق علم الآخرين معتقدا بأنه لا مثيل له، وكما يتجاهل الواهم كل الإشارات التي قد تساعده في طريقه، وكما يتجاهل المغفل طريق الاستقامة من أجل بعض المتع الزائفة، وكما

يتجاهل المحتال ضربات ضميره قبل أن يفاجئه ببركان لا مناص منه ولا مفر من التعامل مع عواقبه وتبعاته.

كنت جالسا مع الجميع وقتها، كنا نتحدث عن الكثير من الأمور، وقد نبهته إلى ضرورة التواضع دون مباشرة، وقد ألقيت أمامه الكثير من الأمثلة التي قد تساعد عنفوانه الملتهب في الهدوء، لكنه ظل يحدثنا عن قصص قد فبرك نصفها، وأخري قد مطها، وثالثة قد تلاعب بمعظمها.

ضحكت كثيرا، لم أتمكن من إغلاق فمي، أخبرته بأنه ذو نرجسية واضحة، وضحت له أننا كلنا قد عملنا وسافرنا وتزوجنا وتمتعنا وضحكنا وبكينا وعرفنا، سألته عن أوهامه وعن حقيقة مركزيته، كشفت له عن حقيقة أننا نقدر بالمليارات وأزحت الستار عن ضرورة أن ينظر المرء إلى نفسه وإلى غيره، كي تستقيم أموره، لأن اللف حول الذات يشبه اللف حول الوهم.

أعتقد أنه قد غفر لي عنفي لكبر سني، لكنه قد تراجع إلي الوراء وحدثني عن حقيقة أنه لا يري أنه لا مثيل له، أخبرني بأنه يحدثنا عن أمور كثيرة كي يشعل الجلسة لا أكثر ولا أقل، إلا أن وجهه قد احمر بغتة حينما حلت بنت الجيران، كانت جميلة ذات فستان قصير خلاب، فستان زينته الزهور ولاعبه اللون الأصفر المجنون، وكان الصدر مكشوفا بشكل غريب، وقد ضحكت وأخبرتها بأن تغطي نفسها، لأن هناك بعض الذكور، صف من الذكور يحملق، زوج ابنتي وصديقه في المقدمة، وها أنا ألعب دور الملاك، فأرفرف بالأفق مدعيا النقاء، لكن السريرة ليست كما تبدو في الكثير من

الأحيان، وكم من رجل حدثنا عن نقاء قلبه رغم كونه مستنقعا للذئاب.

الذئاب تعوي والقمر يظهر في منتصف السماء، لكن القمر أنصت إلى كلماتي وغطي جسده، فأظلمت الدنيا أمامنا وعدنا إلى أرض الجدية والنقاش.

جلست الفتاة تتحدث مع ابنتي الجميلة، كانت تتحدث دون توقف، كان الدوبامين يلاعبها وكانت الدماء تجري في عروقها، فالأمر أشبه بمراهقة صغيرة رأت شابا وسيما في الأفق، فشعرت بحماسة ومرت أمامه بفستانها كي تشعر بنفسها رغم القيود والعادات.

عليك أن تعلم أن النساء يشعرن بقشعريرة حينما يكشفن عن بعض الأشياء، قشعريرة ودغدغة، دغدغة تسري في العروق وتلاعب الأجزاء، لكن الأمر يكبت عند الكثيرات ويترك للريح عند أخريات.

انتقلت في حياء إلى التحدث مع الدبلوماسي ذي العنفوان، وكان زوج ابنتي صامتا كزوجتي التي لم تفتح فمها إلا في بعض اللحظات، حدثته عن عمله وسألته عن دخله، وقد رسم فمها ابتسامة واكبت ما سمعت من أرقام، وقد اقتربت بشكل أكبر حينما علمت بكونه وحيدا، وقد اقترب هو الآخر وأحب الفستان الخلاب، فقد كان ذا طراز أوروبي، وكان خفيفا جميلا قصيرا عند الفخذين بفتحة صدر ملحوظة، وقد قطعت الأجواء بسكين حاد حينما قلبت الصفحة وفتحت موضوعا بدل طبيعة النقاش.

لقد تزوجا بصورة لاحقة، إلا أن هذا المشهد كان لافتا رغم كونه مكررا، كان لافتا لأنه قد رسم صورة أولية عاشها الجميع بدرجات، إن مشهد الإعجاب الأولي لا يصدق، مشهد سماوي خلاب، مشهد قادر علي إثارة الأجواء، فلا يمكنني أن أنسي المشاهد الأولي للتعرف إلي زوجتي، لا يمكنني أن أنسي الفساتين ورفرفة الأرواح وسط السماء، لا يمكنني أن أنسي حفلات الفتيان والفتيات، إلا أن التنقل بين المشاعر ضرورة في كثير من الأحيان، ومن الناس من يضخم الأمور، ومنهم من يتجاوزها، لكن التأثر أمر معتاد، أمر شائع بين الجميع، أمر مهم وعظيم، فلا يمكنني أن أنسي لحظات التعرف الأولية، لا يمكنني أن أنسي البصمات الخلابة والواقعية والخيالية، فقد كان القلب يرفرف وكانت الأجواء نقية، وكان كل شيء عبثيا باستثناء الجلسات الرومانسية.

-٣-

ما الذي سنخسره حينما يكون كل الناس هانئين؟

كثيرا ما لاعبني هذا السؤال، كثيرا ما تساءلت حيال الشخصيات التي لا يمكنها التحكم في نفسها وغلق مداخل الغيرة، ولكن ليس للجميع نفس القدرة على التحكم، والأمر ليس باليسير. ولكن من الضروري أن ننوه إلى الضروري فعله بين الحين والآخر لعلنا نصل إلى مجتمع أفضل.

لماذا أخبرك عن عملي وزواجي وسفري ومتعي وطريقة معيشتي وكيفية قيادتي؟ لماذا أخبرك بكل هذا؟ هل الأمر يتعلق بكوننا اجتماعيين؟ هل الأمر يخص الدواخل؟ هل إرضاء الدواخل لا يعرف سوي هذا المسار؟ هل الأمر غرائزي؟ هل الأمر يمثل برمجة لا يمكن لعلم النفس الحديث أن يحل شفراتها؟

إننا نعيش في سيرك، أحبابي وحبيباتي، إن كلا منا يحاول أن يبهر نفسه وغيره، إننا نحاول أن نؤدي أدوارا مختلفة لعلنا نتفوق على بعضنا البعض، وهو أمر طبيعي في حقيقة الأمر، لكن من الضروري التوقف مع النفس والدخول في منافسة شريفة، من الضروري أن تكون ألواني محفزة لك كي تقدم أفضل منها لكن بشكل يواكب فرحك لي، فلو فرحت من أجلي وفرحت من أجلك، لصارت السعادة مضاعفة، ولصرت أكثر إشراقا وبهجة.

لقد سمعت أن رجلا قد صمم على بناء سيرك في يوم من الأيام غير مهتم بالأولويات، لم يعبأ بالأمور المهمة، لم يهتم بما يجب الاهتمام

به، وكانت النهاية متمثلة في الانحدار وسقوط الفرسان أصحاب الأردية البيضاء وضحكات الأباليس وشماتة الأعداء.

كانت هذه الأفكار تلاعبني بينما كنت ممددا فوق أريكتي أشاهد التلفاز، كنت أشاهد فيلما يدعي الطيور لهيتشكوك، لقد شاهدته مرارا وتكرارا، شاهدته حتى حفظته، أحببته، أحببت كل لمسة فيه، وقد سعدت حينما عرفت أن بطلته هيدرن كانت أم جريفث وجدة جونسون.

يعتقد الكثيرون أن هذا الفيلم أجوف، لكنه ليس بذلك، إنه يمثل الخوف والوحدة، يعبر عن الخوف الفردي والجماعي، يوضح أننا نبدو وكأننا في جماعة لكننا في حقيقة الأمر في عزلة، فكل شخصية تواجه مصيرها وحدها رغم وجود من يحوطونها، إن الخوف وتشريحه أمر واضح في هذا العمل، الخوف على النفس والخوف على الآخرين، العزلة أيضا موضوع نقاش، وكثرة المخاوف وتشعبها متمثلة على هيئة الهجمات المتتالية للطيور من كل حدب وصوب.

كلما سد البطل الثغرات أمام سرب، ظهر سرب جديد، كلما تخلصنا من فكرة وخوف، ظهرت أخري وآخر، إنها حالة لا تعرف الانقطاع، إلا أن ذكر الله أمر مهم حينما تتشعب الأمور، ذكره مهم في كل الأحوال في حقيقة الأمر.

لقد شاهدت مباراة بعد الانتهاء من الفيلم، وقد كنت وحيدا في البيت حيث أن الزوجة كانت قد خرجت بهدف التسوق، وقد اتصلت بصديقي الأنيق كي يحل ضيفا على لبضع ساعات.

حل سريعا، جلس أنيقا، تحدث كثيرا، ضحك طويلا، لم يعبأ بأي شيء، فمن أقمر ليلهم، لا يهتمون، إلا إذا كانت الهموم تلاحقهم على هيئة طلبات من كبار أو ذكريات من زمان.

-٤-

جلسنا نتحدث عن الكثير من الأمور بينما كنا نشاهد فيلما وثائقيا عن حالات الاكتئاب والهوس المنتشرة في العالم، لقد تحدث العمل عن الكثير من المشاهير الذي يعانون من اضطرابات الاكتئاب الرئيسي، وقد تناول الذكور والإناث، وكانت من بينهن الممثلة كريستين دانست.

حدثني عن الملل المسيطر على حياته، فأخبرته بأن السن عامل رئيسي، وقد وضحت له أنه من الضروري محاولة التأقلم مع السن الكبيرة، لأنها طبيعة الحياة، طبيعة الدنيا، فمن الضروري أن يحل التنكيس يوما ما.

لقد حدثته عن الأيام الخوالي حينما كنا زميلين في المؤسسة الصحفية لفترة من الزمان. وقد سار الحديث على هذه الشاكلة.

- هل تتذكر حينما كانت المؤسسة وقتها في القمة، حينما كانت تتلألأ في عالم الصحافة والإعلام، حينما كانت بمثابة الجوهرة الكبرى في البلد؟
- أتذكر يا عزيزي، أتذكر كل هذا البهاء، لكن المرتبات كانت ضعيفة وقتها، وكان التضخم يأكل كل شيء، كما أن الكثيرين كانوا يرغبون في الهروب.
- أعتقد أن التضخم لم ينل منا في هذه الفترة، أعتقد أنه قد حل علينا بعدها بسنتين أو بثلاث سنوات.

- ربما، لا أتذكر جيدا، لكني على يقين بأن الأمور لم تكن صافية.
- إنها الدنيا يا عزيزي، إنها ليست بالجنة، فالواهمون يعتقدون أن السفر إلى الخارج سيمنحهم الجنة، لكنهم في حقيقة الأمر لن يهربوا من العبء الوجودي الذي كتب على الجميع، إلا أن العبء قد يكون أقل حدة في بعض البلدان.
- صحيح. أتفق معك، ولكن من الضروري أن نأمل في رؤية المزيد من الأماكن، المزيد من البشر، المزيد من الثقافات، المزيد من المتاهات!

استمر الحديث لفترة ليست بالقصيرة، وقد فتح الباب، وولجت زوجتي المكان، فسعدت للغاية، ورحبت بصديق الكفاح، وسألته عن زوجته وأخبارها، فوضح لنا بأنها تحب منزلها ولا تغادره إلا في بعض الأوقات.

كانت زوجته انطوائية بشدة، منذ الصغر، كانت كذلك على الدوام، لم تتغير، حاولت أن تندمج ففشلت، إلا إنها كانت تجتمع معنا في المناسبات الكبرى، حفلة شواء بالحديقة، حفلة تنكرية للأصدقاء، جلسة ثقافية محتدمة، الأعياد، وهكذا.

كانت جميلة لكن زوجتي كانت أجمل، ولكن الجمال نسبي كما نعرف، كما أنني أضحك كثيرا عندما أتذكر أنني كنت أصنف النساء في صغري على مقياس طويل ذي درجات متعددة، وعندما كبرت، أدركت حجم سذاجتي وحجم الهراء، لقد أدركت الأوهام، وها أنا أحاربها كلها، وأتخلص منها الواحد تلو الآخر.

احتدمت الجلسة، ثار النقاش، وقف أمامنا كثائر هائج، فقد حدث ما حدث حينما انتقلت الجلسة إلى التحدث عن السياسة، عارضته وعارضني، وقد ساندتني زوجتي، نالت العصبية منا جميعا، فأسرعت بتهدئة الأمور، خوفا مما يحدث حينما تنتقل الحوارات إلى هذه الساحة، فقد قطع التحدث في السياسة العلاقات بين الإخوة والأصدقاء، أدخل الكثيرين في متاهات لا طائل منها، وأحدث خللا عند الكثيرين.

بعد أن هدأت الأمور، قدمت إليه مشروب الليمون بالنعناع، وكانت قطع الثلج قادرة على منحه الانتعاش المرجو، وقد شكرني وشكر زوجتي، وهم بالمغادرة.

أفتقده بشدة، أفتقد صديقي القديم، فقد توفي في اليوم التالي بفعل الكوليسترول أو ما يمكن أن نسميه بالقاتل الصامت. فقد أدت الplaques إلي إغلاق الشرايين مع الوقت، وقد ساءت الأمور وصار الأمر كارثيا. فقد اعتبرت الأمراض المتصلة بال Atherosclerosis السبب الأول القابع وراء الوفيات في الولايات، وهو ما يعد أمرا خطيرا بكل تأكيد. وهناك إحصائيات تخبرنا بأن نصف الأمريكان بين سن ال٤٥ وسن ال٨٤ لديهم Atherosclerosis، ولا يعلمون شيئا عن ذلك.

-٥-

بعد أن انتهت مراسم الوفاة، أكلنا الكباب، هكذا هو الحال، فبمجرد أن يغادروا، نسرع إلى الطعام. إنهم يغادرون بعد كل هذا الإرهاق وبعد كل هذه المبالاة بنقدنا وتصنيفاتنا وآرائنا، كما أننا نأكل كالوحوش وقتها، وننسي كل شيء بعد أيام.

حياة قاسية نرصدها بنظرة قاصرة، فالجلوس فوق الجسر أمر وهمي بطبيعة الحال، فكيف يمكن للسائر أن يقطن أرض الجسر في سكون؟ كيف يمكن للجسر أن يكون مستقرا رغم أنه وصلة بين مكانين لا أكثر ولا أقل؟

إلا إنه من الضروري أن نزود أنفسنا بأشياء نحتاجها بينما نعبر الطريق، نحتاجها على المستوي الداخلي قبل كل شيء. وعندما تتأمل فتاة جميلة تقطف الأزهار وتتيه في حدائق الرمان وتصاحبها البلابل والألحان وتحوطها الطبيعة وروائح البستان، تبتهج، تتسرب إليك انتفاضة تمنحك حماسة الصغار، تشتعل حواسك وترغب في ألا ينزل الستار، لكن الستار ينزل بين الحين والآخر، كي يمنحك راحة بين الفقرات، فالحلوى تصبح مرة إذا أكلت في إسراف. ولا أقصد الفتاة بشكل حرفي، لكنني أقصد المعني المجازي، فكل ما هو جميل، قادر علي منحك الشرارة اللازمة للمواصلة، وقد يتمثل الأمر في عملك أو شغفك أو شريكك أو رحلتك أو هوايتك أو موهبتك أو غرورك المريض!

أضحك كثيرا، أضحك كثيرا دون توقف، فقد أقحمت بعض الكلمات غير المناسبة في السياق، لكن عندما تتأمل الحوارات، ستجدنا، نحن البشر، نقحم الكثير من الأفكار العبثية بين الحين والآخر، لأن التركيز يفقد في بعض الأحيان.

لقد غاب الكثيرون في الأفق، اختفي كل مغرور، أتذكر حوارا لممثل يدعي دي نيرو، أتذكر حينما وضح أنه من الضروري أن نكون متواضعين، خاصة عندما تحل لحظات النصر، فكلنا معرضون للاستبدال في أي لحظة.

ولكن لماذا نتطرق إلى كلمات بعض الغربيين ونترك كلمات العرب والمسلمين؟ إنها عقدة الخواجة علي ما يبدو، وهي عقدة من الضروري التخلص منها.

فالدين الإسلامي يدعو إلى التواضع وقتل الغرور، وهو أمر يظهر في هيئات كثيرة وأشكال عديدة، كما أنه أمر محوري لكل نفس تبغي تطورا نفسيا سليما، وهو تطور لا يدحض الذات لكنه يطورها ويقويها ويضعها على الطريق الصحيح قدر الإمكان.

عندما كنت صحفيا في صغري، كان الغرور يصاحبني في بعض الأوقات، وهو غرور خطير قد يجعلك تقدم على فعل أسوء الأفعال، فكل شيء متاح، وكل إنسان قابل للسخرية، وكل فعل له تبرير، وكل أمر يسير، حتى ولو كان السياق خياليا في بعض الأحيان. كما أن الجلوس وحيدا لفترات طويلة، قد يجعلك مغرورا بشدة، وله

تأثيرات تخديرية رهيبة، ولهذا من الضروري الحذر والاهتمام بما يفيد قدر الإمكان.

جاءتني الزوجة وأخبرتني بأن وقت النوم قد حل، وكانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل بالفعل، وكنت أشعر بقشعريرة غريبة ووهن قد نال مني، ولهذا أسرعت إلى النوم محاولا أن أهدأ قليلا.

لطالما أحببت أن أهدأ قبل النوم، فكنت أشرب النعناع وأشم النعناع وأستنشق رائحة الشمعة اللعينة، وكنت في بعض الأحيان أضع المرطبات وأشرب الكاموميل.

لقد حلمت ليلتها بأمور كنت أفعلها في صغري، رأيت نفسي صغيرا أجلس أمام التلفاز أشاهد فيلما لأشتون كوتشر وكاميرون دياز، بينما أذاكر في كتاب طبي، فقد درست المجال لبعض السنوات قبل أن أنتقل إلى الصحافة والإعلام، لكن الكتابة والإعلام مثلا شغفي في نهاية المطاف. أتذكر المترجم صالح علماني الذي عرف بالترجمة من الإسبانية إلى العربية، وأتذكر أنه قد درس الطب في البداية ثم تحول بعد ذلك إلى دراسة الأدب الإسباني، كما أنه قد حاول كتابة رواية لكنه لم يكملها وخاف، فاتجه إلى الترجمة وفضل ذلك.

جاءني بعد ذلك حلم غريب، رأيت جدتي الراحلة تضحك بشدة، كانت تضحك دون هوادة، وقد جمعتنا جميعا وجلست تحكي لنا قصة عن رجل كان يحتضر على فراش الموت. لقد تهافت الأبناء على المحتضر، وقد بكوا كثيرا، وبعد أن رحل، فتحوا صندوقا وضعت

به الوصية، فوجدوا ورقة ملفوفة، وقد قرأها أحدهم في لهفة. وكانت الورقة تقول: (خازوق بأوتاده في مؤخرة من يترك شيئا لأولاده).

استيقظت من الحلم وكنت أضحك بشدة، كانت ضحكاتي تتعالي في عنان السماء، وقد فزعت زوجتي بشكل لم يكن في الحسبان، وقد خلعت ملبسها وحاولت خنقي في سخرية، إلا إنني كنت أضحك بشدة، ولم أتوقف قط، فما زاد الضحكات بلة، تمثل في قدرة المرأة رغم سنها على فعل ما فعلت، لكنها سرعان ما هدأت، وسرعان ما عادت الأمور إلي نصابها.

-٦-

عندما تقرأ عن العصر الذهبي الإسلامي، تسعد وتبتهج، وتدرك أن الأيام تدور، وأن لكل أمة فترة زهو، وعندما تنهار حضارة، تظهر أخري، ولكل مجتمع نصيبه وقدره. فالعصور الوسطي كانت مهيمنة قبل التقدم الغربي الحالي، بل إن التقدم قد لحق بدول غربية بعد أن كانت ضعيفة للغاية منذ عدة عقود، فقد قامت هذه الدول على رجليها بعد حروب وصراعات وبربرية غير عادية، والأمر مطبق على الجميع، فلا مناص للغوغائية أن تظهر في البدايات، ويتبع الأمر بعد ذلك ببناء الحضارات، إلا أن الجميع لا ينجح في ذلك، فالجميع لا ينجح في الإشراق أو في استعادة أمجاد الماضي. والأمر نفسه بالنسبة إلى الأفراد، وهو ما يمكن إدراكه مع الوقت ومع مرور الزمان.

كنت أتنقل بين هذه الكلمات من كتاب مجهول لم يحقق أي نوع من القبول، وقد نحيته جانبا، وقمت لإعداد القهوة الكولومبية المميزة، وقد كانت كالمتوقع لكنها لم تصل إلي القمة التي أحسست بها في أنواع أخري، وبينما كنت أرتشف بعض القطرات وأتنقل بين الويلات بينما أتأمل الطبيعة في الخارج عبر شرفة من الشرفات، مرت أمامي بنت الجيران، وقد فتحت من أجلها الباب، وقد ولجت في حيوية وإشراق، وناديت زوجتي كي ترحب بها وتحسن استقبالها، وقد جلسنا نحن الثلاثة نتنقل بين الكلمات، محاولين أن نتخلص من الوحشة وأن نأنس بحوارات دافئة قدر الإمكان، وهو ما يحاول أن يصل إليه كل إنسان.

أخبرتنا عن زوجها، جلست تتحدث عن انشغاله وكونه مسئولا عن الكثير من الأمور المحورية والأساسية في البلد، وقد أخبرتها بأنها طبيعة الدنيا، طبيعتها المتمثلة في الانشغال، بل إن المرء يجمع الكثير والكثير، لكنه لا يجلس ليستمتع ويتأمل ما جمع إلا قليلا، وهو حال كل إنسان، مهما أظهر ومهما أبان.

كانت ترتدي جونلة قصيرة، وقد كشفت عن تاتو لوردة مرسومة على فخذها قرب ركبتها، وقد شعرت بانتفاضة، وقد تحرك الثوار في بلد في الأسفل ودمروا كل شيء، لقد وصلت الحماسة إلي القمة ثم هبطت، لقد فارت القهوة فورانا غير تقليدي، لقد خرجت الlava من الcrater وقد تدفقت بشكل رهيب، لقد نمت الزهرة وزبلت سريعا، لقد صعد الدوبامين ونزل بشكل محزن، كآبة بعد فرح، فرح بعد كآبة، توتر بعد استقرار، استقرار بعد توتر، هكذا هي كل الأمور، هكذا هي الكيمياء، لكن الذكاء قادر علي منح العقل بعض اللحظات التي يفصل فيها لعله يشعر بالأمور بصورة أفضل ويحس الاتصال بشكل أكبر ويكون قادرا علي إدراك ما يجب إدراكه بصورة قوية لا ثانوية أو هشة، كما هو الحال مع الحمقى الذين لا يمنحون النفس بعض اللحظات كي تلتقط أنفاسها قدر الإمكان.

ابتسمت حينما لاحظت خبثي رغم كبري، رغم عجزي الذي حال بيني وبين الجمال، لكن الشيب لن يوقفني، وقد ضمت رجليها وأخبرتني بأنها قد حصلت عليه منذ سنة، وقد كلفها وقتها قرابة الخمسة دولارات.

ضحكت كثيرا، وقد ضحكت زوجتي أيضا، لقد مر الأمر سريعا، مر كما يمر كل شيء، وقد أزيحت الكراسي بعيدا، وولجنا المطبخ بهدف الحصول على بعض الطعام، إلا أن الزوجة لم تجد ما يكفي كي تطبخ، فأسرعت بطلب بعض المواد، وقد انتظرت بشدة وفي لهفة، إلا أن الفتاة قد عادت لتشاركنا جلستنا محاولة أن تأنس بنا وتزيل الوحشة عن صدرها لانشغال زوجها.

لقد تشاركنا الطعام، أكلنا بعضا من اللحم والأرز والملوخية الجميلة ذات اللون الأخضر البراق، وقد شربنا الشاي وتناولنا بعض الحلوى، ودخلت لأنام تاركا السيدتين في حالة وئام.

ولجت الغرفة، قفزت إلى السرير، وقد دخلت إلى عالم الأحلام في سرعة تامة. جاءني في منامي رجل غريب، أخبرني بأنه من الضروري التخلص من الحماقات والتقرب إلى كل ما هو جاد، نصحني بقلة الضحك والموازنة بين التفاؤل وأمور الذات، لكنه سرعان ما غادر تاركا إياي في حيرة من أمري وفي ثبات.

أتذكر حينما كنت صحفيا صغيرا في بداية المشوار، لقد ترجمت عددا من الأعمال الوثائقية أيضا، وقد عرضت على بعض القنوات، كما أنني قد ألفت عددا من الكتب التي لاقت رواجا كبيرا في الأوساط الثقافية، خاصة على الصعيد الخاص بالإنترنت ومواقع القراءة المختلفة، إلا إنني كنت علي علم وقتها بأنني كنت في حاجة إلى المزيد، المزيد من العمل، المزيد من الشغف، المزيد من كل شيء، ولكن هل ترضي النفس؟ هل تهدأ؟

نعم، من الممكن للنفس القنوعة أن تصل إلى ما تريد عبر الاستمتاع بكل لحظة نصر كانت ترغبها في الزمن القديم، ولكن الإنسان الحكيم عملة نادرة في هذه الأيام، وربما على مدار الزمان.

استيقظت من النوم، فوجدت أن الفتاة قد غادرت، وكانت ابنتي قد حلت على الساحة مع زوجها، فقد كنا نجتمع كل فترة بهدف شرب الشاي أو تناول الطعام لعلنا نحصد بعض اللحظات الدافئة والخلابة. كانت تعمل في السلك الدبلوماسي أيضا، لكن في وسط مختلف عن الوسط الخاص بزوجها، أما زوجتي فقد كانت معلمة كبيرة في صغرها، وكانت معروفة بالانتظام والمثابرة والإصرار، الإصرار على العمل، الإصرار على التفاؤل، الإصرار على الوصول إلى ما يجب الوصول إليه، لكنها في الوقت عينه كانت تتمتع بروحانية جميلة مكنتها من بلوغ المطلوب دون تكالب ودون غرور.

كانت تخبرني بأن أتوقف عن تأمل الممثلات، تشارليز ثيرون، مونيكا بيلوتشي، إلخ، لكنني في حقيقة الأمر لم أكن بصباصا بأي شكل من الأشكال، كنت محترما في معظم الأحوال، وكنت في الحياة الواقعية أتصرف على نفس المنوال، لأنني لم أكن أتلذذ بالتحدث إلا نادرا، والتحدث بمثابة المدخل بكل تأكيد.

جلسنا نتحدث عن الترقية التي حصدها زوج الابنة، كان سعيدا للغاية، لطالما أحببت تأمل نظرات النصر في أعين الآخرين، فكنت أسعد لسعادتهم ولسعادتي، وهو أمر منحني سعادة مضاعفة، ولكن في الكثير من الأحيان حينما نتحدث عن الغرور، تصبح أنفسنا عارية دون رداء، فيظن الآخرون أنهم قد عرفونا، لكنهم لم يعرفونا حقا، لأنهم لم يعرفوا أنفسهم حتى، فالإنسان لا يعرف بسهولة ولا

يعرف نفسه إلا نادرا، بل إن سيوران قد أخبرنا في يوم من الأيام بأن الإنسان لا يعرف نفسه ثم يأتي أحمق ويخبره بأنه يعرفه جيدا.

أخبرتني زوجتي بأن أكف عن الثرثرة فجأة، فاحمر وجهي وارتعشت لحيتي البيضاء، وقد كاد كوبي أن ينزلق، وقد أسرعت بالذهاب إلى الحمام، فطرطرت كثيرا، وارتحت طويلا، وبعد أن عدت وجدت أن الجميع قد غادروا من أجل مشوار عرفت عنه بعد ذلك.

وجدت ضوء القمر يلاعب الشباك الزجاجي، كان يضحك لي، وقد وجدته يقترب مني، اقترب من الشباك الكبير المطل على الحديقة، اقترب وكاد أن يحضنني، ضحك كثيرا، وأخبرني بأن ليلي قد أقمر، أخذ يسخر من خصلات شعري البيضاء، فبكيت كثيرا وتذكرت الصراع، تذكرت الجميلات، تذكرت الأعمال، تذكرت القلم الذي كتبت به أجمل القصص والمقالات، صليت طالبا النجاة، وعدت من جديد فوجدته واقفا غير راغب في المغادرة، كان يستفزني رغم منظره الجميل، كان يثير الشكوك في كياني حيال حياتي ومالي وطموحاتي وأطماعي وأحلامي وذكرياتي، حيال كل شيء، حيال كل شيء بكل ما تحمله الكلمات من معني.

لقد حلت العروة، وفك الحبل، وقد تمددت وارتحت، نمت فوق الأريكة، نمت نوما عميقا، لقد ولجت عالم النوم دون أن أشعر، دون أن أحس، وكأن الإرهاق قد نال مني فأسكنني منزلا غصبا ووضعني بين حدود لا مفر من التواجد بينها، لكنها طبيعة الحياة، تعب وراحة، استيقاظ ونوم، ليل ونهار، كان نوما هنيئا، وقد امتد حتى الصباح الباكر دون أن ألج الحمام، وقد أيقظتني زوجتي صباحا بعد أن أعدت وجبة الإفطار وكوب القهوة الخلاب.

كان فيلم بولين على الشاطئ مميزا للغاية، كانت إحدى القنوات تكرره بشكل مستمر، وقد شاهدته مجددا بينما كنت أشرب القهوة، إلا أن جرسا قد رن وضيفا قد حل.

-٧-

إنه صديق قديم، كنت قد تواصلت معه منذ عدة أسابيع، وقد قررنا أن نتقابل لعلنا نسترجع بعض الذكريات، إلا إنه قد حل دون ميعاد، فلم نكن وقتها قد قررنا الموعد المناسب للزيارة، ورغم ذلك لا توجد مشكلة، فالوقت مناسب بالصدفة.

كان صحفيا ناجحا للغاية في صغره، تجاوزني بمراحل وكنت سعيدا من أجله، لم أحمل له سوي كل خير، وقد سعدت أكثر حينما علمت أنه قد حصد جائزة كبري، لكنه لم ينافسني في ميادين عديدة، ميادين الكتابة الروائية والنقد السينمائي والتحليل الأدبي، فقد كنت بارعا في هذه الساحات ولم أجده فيها كلما بحثت عنه، رغم توقعاتي الدائمة باحتمالية ولوجه المنطقة المكتظة بالمفكرين والباحثين في حقيقة الأمر.

جلسنا نتحدث سويا وقد رحبت به زوجتي، أحضرت لنا بعض الشاي التايلاندي ذي اللون البرتقالي، وقد تحدثنا كثيرا، تحدثنا عن أمور فات زمانها وأحداث مرت في سلام وأخري مرت بعد اضطراب، لكنها طبيعة الحياة كما يدركها كل الأنام، وقد أخبرني بأنه قد ترك العمل الصحفي منذ سنتين وأن الملل قد تسلل إلى حياته من وقتها.

كان يأنس بزوجته وأبنائه، لكنه كان عاجزا عن إدراك الشرارة، فأخبرته بأنها طبيعة الدنيا، وبأن كثرة التعرض إلى شيء تسبب الملل، وفي الوقت عينه حدثته بأن التعرض إلي شيء ينسينا التعرض إلي أشياء أخري عاهدناها فيما مضي، وبأن الملل سيد الموقف، لكن الإثارة تدرك بين الحين والآخر عبر العمد إلي الفواصل، فلو زار

المرء شواطئ العراة، لفقد الشرارة مع الوقت كنتيجة لكثرة التعرض، وهو أمر قد يبدو هجينا غير لائق، إلا إنه يمثل الصورة الأولية للشرارة ضمن الإطار البدائي، فكثرة التعرض وفقدان البصمة الأولية بمثابة الطريق المباشر للملل، وهو ما يؤكد أهمية الحجب بين الحين والآخر.

ضحك كثيرا، ضحك دون توقف، وكانت ضحكاته تتعالي في عنان السماء، وأخبرني بأن في كلماتي يكمن شيء من الصواب، فأخبرته بأنه ليس من المهم أن تحمل كل الكلمات الحقيقة، فجزء صغير كاف للإدراك وجزء طويل قد يثير لكن دون فائدة.

عندما تشاهد فيلم الجحيم لإيمانويل بيار، تتسلل إليك القشعريرة كثيرا في كل مرة تتأمل فيها الزوج بينما تقتله الغيرة وتداهمه خيالاته التي لا تحصي، وهو أمر حدثته عنه، أخبرته بأن القشعريرة قد تتسلل إلى الحياة في هيئات عديدة، تجربة جديدة، عمل جديد، مال، زواج، امرأة، روحانية، طعام، دين، خير، شر، غيرة، حقد، عنف، إلخ.

أخبرني بأن هذا الفيلم قد أعجبه كثيرا رغم قدمه، فقد كان فيلما جيدا عن الغيرة والهوس والكثير من النقاط القادرة على جلب أجواء الإثارة فوق المنضدة، إلا إنه قد تابع كلماته موضحا أن القشعريرة نوعان، نوع جيد قادر علي المواصلة، ونوع سيء قد يكون ذا صدي ضخم للغاية في البدايات لكنه يتحول إلى ضجيج في منتصف الطريق، فلا يصل إلى النهاية، لكنه يقطع الطريق، يقطع المسار، ولهذا من الضروري أن توضع الإثارة في المحل الصحيح والموضع القويم.

تحدثنا بعد ذلك عن النظرة التحقيرية والنظرة التقديرية، أخبرته بأن من يحتقر الناس قادر علي التقليل من شأن كل شيء ضمن نظرته الخاصة، لا ضمن الحقيقة، فيخبرنا بأن هذا الممثل ممثل ضعيف وبأن هذا المخرج مخرج فاشل وبأن هذا الطبيب طبيب مجهول وبأن هذا المحامي محام لا يفقه شيئا وبأن هذا الصحفي أحمق، وهكذا.

أخبرني مكملا كلماتي، بأن النظرة التقديرية على النقيض، تتحدث عن براعة الممثل ومهارة المخرج وروعة الطبيب ودهاء المحامي وطلاقة الصحفي، إلا أن الأمر لا يسير على هذا المنوال باستمرار، فمن الممكن أن يكون هناك خلل في واحد من هؤلاء، إلا أن النظرة التحقيرية الدائمة تعبر عن خلل، فمن يسير بين الناس ويحتقرهم جميعا وينسي أن يقيم ذاته، يعاني من خلل كبير، خلل في الشخصية، نرجسية وجنون عظمة، كره واضطراب، ضعف متأصل عميق، وغيرها من التفاصيل التي قد لا ندركها بشكل مباشر، لكنها تظهر بين الحين والآخر.

أخبرته بأنني قد جلست مع بعض الناس في صغري، ممن لا يعملون بما فيه الكفاية، وأنني قد لاحظت كرههم الذي تراكم تجاه كل شيء، تجاه الناس وتجاه الدولة وتجاه كل شيء بما تحمله الكلمات من معان عدة، وهو ما ينبه إلى أهمية الحركة، منعا للمشاعر السلبية، إلا أن المشاعر السلبية قد تلاحق المتحركين أيضا، وكما يقول كيركجورد، (افعلها أو لا تفعلها، ستندم في كلتا الحالتين).

أخبرني بأن الندم لم يلاحقه إلا قليلا، لكنه قد اكتشف في الآونة الأخيرة، أننا كثيرا ما نخفي الحقيقة بداخلنا، فالأسطح تلاعبها

أشعة الشمس الذهبية البراقة، لكن في القاع تكمن كل الحقائق، الحقائق التي يبرع الكثيرون في إخفائها ويعجز آخرون عن فعل ما يفعلون، إلا أن الجميع يكشف أمره في نهاية المطاف، فما خبأته سيكشف، وما أعلنته سيعلن بشكل أكثر وضوحا.

حدثته بأن كلماته تحمل الكثير من المنطق بداخلها، إلا إنها تنقصها بعض النقاط المحورية المتعلقة بقدر الإدراك عند البشر، فالبشر لا يتمتعون بنفس القدرات الإدراكية، وهو أمر هام للغاية، فأصحاب الوعي المرتفع يعانون أكثر من أصحاب الوعي المنخفض في ظروف عديدة، فالإدراك المرتفع قادر علي إلقاء الإنسان في دوامات الغرور ومتاهات العبور، العبور إلى الجوانب المشرقة التي تتخيلها العقول الذكية باستمرار دون هوادة ودون لحظات صبر وتوقف.

أمسكت بكوب من القهوة ومنحته إياه، أخبرته بأنها قهوة من ألمانيا، اشتريتها منذ سنة ب١٥٠ وحدة، وقد صارت الآن ب٣٥٠ وحدة، وضحت له أنها مميزة للغاية، وقد تابعت كلماتي موضحا أن الكثير من المنتجات الإنجليزية والألمانية والأمريكية والإيطالية تعتمد على التعبئة والتصميم لا أكثر ولا أقل، أما المصدر فإنه يكون من أفريقيا أو أمريكا الجنوبية أو الهند أو بعض الدول القابعة في أقصي آسيا، وهو أمر يمكن تطبيقه على الكثير من المنتجات، كالشاي والقهوة والشوكولاتة والأعشاب الطبيعية والذهب والملابس وغيرها.

أخبرني بأنهم لصوص، لكنهم سيسقطون حتما في النهاية، سيسقطون وسيعودون إلى عصورهم الوسطي كما كانوا، فالزمن دوار، والقوة للعزيز الجبار.

-٨-

كانت الجلسة شيقة للغاية، وكانت زوجتي نائمة، وقد حلت بنت الجيران من جديد، كانت جميلة، كانت قادرة على منحي نبضات الجمال الأنثوي، تلك النبضات التي لا تفارقني حينما أنظر إلى زوجتي العزيزة حتى بعد كل هذا الزمان، وحينما أنظر أيضا إلى الجميلات، لكنني أغض البصر بكل تأكيد، خوفا من الويلات.

إن الشرارة تفارق الكثيرين، لكنها لا تفارق أصحاب الخيال المتين، وقد كان خيالي براقا واسعا للغاية طوال حياتي، وهو ما منحني الكثير من الأمور الجميلة التي سعدت بها، فكان واقعي مساندا لخيالي، وكان خيالي مدعما لواقعي، فوصلت تجربتي إلى القمة، رغم الميلودراما والتراجيديا التي كنت أدمجها مع أعمالي وأقحمها في رواياتي وأدرسها بين الحين والآخر، فما يظهر علي السطح لا يعبر عن القاع، وما يرسو في القاع قد لا يظهر لأن أشعة الشمس تلاعب السطح، وكم من ضاحك أخفي حزنا دفينا، وكم من حزين أخفي فرحا لم يفهمه لمشاعره المتضاربة حينها.

جلست معنا، كانت ترتدي فستانا طويلا بـslit بدا جميلا، وقد سلمت علي الصديق، وعرفت نفسها وعرف نفسه، تحدثا كثيرا، بينما كنت أعد بعض العصير، عصير البرتقال الطازج، ذلك العصير الأنيق الذي صاحبني يوميا لعقود، وقد شربنا وسعدنا، إلا إنها قد سألت الصحفي العجوز عن رأيه في تجربته، فأخبرها بأن التجربة البشرية تستحق، تستحق الكفاح، تستحق الصمود، فهناك نور في نهاية الأفق، وهذا النور لا يدرك إلا مع درء الذات، أي من الضروري

أن تبني وتلفظ في الوقت عينه، وبهذه الكيفية يتحقق التوازن المطلوب.

لم تفهمه في البداية، فقد كان اهتمامها منصبا على المكياج والملابس وأنواع الundies، وغيرها من الأمور الأنثوية التي تأخذ نصيبا كبيرا من أذهان الفتيات لفترة طويلة.

تتحدث النساء عن الskincare والملابس والأيس كريم والمايوهات والشعر والمكياج وفارس الأحلام والزواج والارتباط وتوزيع المسئوليات والهرمونات والدورات والأولاد طوال الوقت، إنها حلقة لا تعرف الانقطاع، وهي حلقة مهمة من الضروري للرجال أن يسايروها كي ينالوا منالهم، منالهم بأشكاله المختلفة. وللرجال حلقة أيضا، حلقة من الضروري للنساء أن تتماشي معها كي يحصلن على منالهن أيضا، حلقة الغرور والبناء وملامح الرجولة والأقران والكفاح، إلخ من الأوهام.

إن وجودية الرجل لم تكن شيئا مفهوما بالنسبة للفتاة، وتجريديتي لم تكن أمرا يسيرا لها في الكثير من الأحيان، إلا إنها كانت تحاول أن تواكب العجوزين لعلها تأنس ببعض الكلمات، ففي الكثير من الأحيان، نتحدث من أجل مرور الوقت لا أكثر ولا أقل، وكم من حديث دار منذ فجر التاريخ كي نمرر الأوقات، وكم من رجل حاور امرأة بدافع الفضول وتخيل السيناريوهات، وكم من حبيب تحدث في متاهات من أجل أن يتزوج من يحب، وكم من حبيبة لفت كثيرا وتحاورت طويلا من أجل الوصول إلي فارس الأحلام، فارس المسلسلات والأفلام.

كانت الجلسة دافئة رغم ثقل كلماتنا على وقع أذنها، إلا أن الموضوع قد اتخذ جانبا مشرقا حينما انتقلنا إلى التحدث عن روايات ماركيز، وقد كانت قارئة جيدة في هذا الصدد، كانت تحب أعماله، وقد قرأت له العديد من الروايات، وقد مثلت رواية (مائة عام من العزلة) القمة عندها، بينما كانت رواية (عن الحب وشياطين أخري) ذات طابع خاص بالنسبة إليها.

بعد مرور الوقت، خرجت مع زوجتي إلى السوبرماركت، وقد كانت ابنتنا ترافقنا، حيث أنها قد حلت بسيارتها. لقد كانت الجولة ممتعة للغاية، وقد اشترينا بعض الجبن واللبن والمربي والخبز واللحم والدجاج والأرز، وعدنا أدراجنا سريعا، إلا أن الابنة قد صممت على الرحيل رغم إصراري على بقائها كي تشاركنا وجبة العشاء، كانت وجبة جيدة خفيفة سريعة اعتمدت في قوامها على اللبن والموز في حقيقة الأمر.

دخلت لأنام بعد أن خرجت من الحمام، وجدت نفسي قد ولجت عالم الأحلام في وئام تام بعد أن هيمنت الأباجورة الصغيرة ذات الطراز القوطي العتيق، وقد كنت على وشك أن أقرأ رواية قصيرة، إلا أن النوم قد حل والحلم قد هل.

لقد حلمت بأن هناك الكثير من النهود في السماء، نهود في كل مكان، كانت عارمة، كانت رؤية صادمة، أحسست بأحاسيس غريبة هجينة، وكأن الأمهات يتحدثن إلي، وكأن أمهات العالم بأسره يتحدثن إلي، يتحدثن دون توقف، يتحدثن راغبات في شيء لا أملكه وأداة لم أحصل عليها قط، لقد رغبن في الإمساك بقلمي وكسره،

وقد وصفت بالمخبول الذي ظهرت موجات الميسوجينية والانطوائية في كتاباته، فأخبرتهن بأني رجل طيب أكتب بعض الروايات التي لا تتصل بشخصيتي اتصالا قويا، فكلها محض خيال، محض خيال، محض خيال.

-٩-

كانت أفكار غريبة تلاعبني وقتها، كان عقلي يتحدث كعقل مجنون، لقد وجدت نفسي وسط جمع مهيب، وكنت أبرر موقفي بشكل غريب، أخبرت الجمع بأن مشكلة الكثيرين الخلط بين شخصيات الخيال ومؤلفها، وفي الوقت عينه وضحت أن موجات الانطوائية تظهر حينما نحلل البشر وسلوكياتهم، فهو أمر طبيعي، لأننا نعزل السلوك ونبدأ في تفحصه، فنعزل أنفسنا عن السياق كي نحلل البقية ثم نعود إلى أنفسنا، وبينما نعود إلى أنفسنا، تظهر شذرات يظنها البضع ملامح انطوائية أو عزلة، رغم أنها لا تمثل سوي العودة السريعة للذات.

كما أن من يشرح المرض ليس بمريض، ومن يتفحص الخلل ليس بالضروري أن يعاني منه، وهو ما يعد أمرا بديهيا ومنطقيا في حقيقة الأمر.

لقد انتهي الحلم، استيقظت، ذهبت إلى الحمام، طرطرت، عدت إلى النوم، فجاءني حلم آخر، حلمت بمشهد قديم اتصل بعملي في الوسط الصحفي.

لقد زرت جزيرة بورتوريكو التابعة لجزر الأنتيل الكبرى في عام 1995، كنت سعيدا للغاية بالزيارة، وقد كان لي سبق صحفي هناك، فقد وثقت حدثا سياسيا هاما وقتها، وعندما عدت إلى مصر، صرت ذا صيت لسنوات، إلا إنني قد تعرضت لموقف غريب هناك.

عندما دخلت حماما في أحد المقاهي الشاطئية التي كانت تعج بفتيات يرتدين البكيني ورجال يرتدون ملابس قصيرة تشبه ملابس النساء، سمعت صوتين يتحدثان في الخارج، كان الصوت الأول يخبر الآخر بأن هناك رجلا قد ضاجعه بعض الرجال في حمام من هذه الحمامات حتي الموت، وأن الجريمة كانت كبيرة وكانت ذات ضجة وصيت واسع، وقد شعرت حينها بمشاعر متضاربة نجمت عن بعدي عن موطني، فالسفر مفيد، لكنه مخيف في بعض الأحيان حينما تتضارب المشاعر، وكم من مسافر بكي وحيدا في بعض اللحظات خاصة عندما تطول المدة أو تكون الزيارة بهدف العمل لأشهر.

لقد امتد عملي هناك لأشهر، ولم يتوقف الأمر على العمل فحسب، لكنني استمتعت بالشاطئ كثيرا بين الحين والآخر، وكانت زوجتي تراسلني باستمرار، وكانت الجولة باردة أحيانا ودافئة أحيانا أخري، إلا أن التضارب سيد الموقف في معظم الأحيان، وهو تضارب قد يلحق بك في سفرك أو في موطنك، فلا تجزع، واستمتع، وركز على الجانب الإيجابي قدر الإمكان، إلا أن المهرب من الجانب السلبي وهم وخيال، كالليل والنهار، والشمس والقمر، والهدوء والاضطراب، والتشابه والتنوع، وهكذا، فالنغمة الثابتة من وحي الخيال.

لقد استيقظت من النوم، وقد جلست أسترجع الذكريات التي لاحقتني دون توقف بعد أن قفزت أفكار الرحلة إلى ذهني، فالفكرة التي تأتيك في نومك، قد تلاحقك عندما تستيقظ، وهو ما يعد أمرا غريبا، وهو أمر قد لازمني لفترات طويلة، بل إنني كنت أحلم أحيانا بأمور كنت أراها أمامي في آخر النهار واقعة محققة.

كانت الذكريات الخاصة بهذه الرحلة تتدفق بشكل غريب علي غير العادة، فمن المعروف أن معظم الذكريات تتحول إلى هباء، لكن هذه الذكريات كانت قائمة واضحة، كانت تلاعبني وتسيطر على أفقي بشكل قوي للغاية.

كانت هناك فتاة خلاسية شبقة ذات أصل فرنسي تلاعبني وقتها هناك، كانت رائعة الجمال، أحسست فيها بالأمل والنبض، كانت نبضات قلبي ترتفع كلما رأيتها، إلا إنني كنت أتجنبها قدر الإمكان، فقد كنت رجلا محترما بكل تأكيد، وقد أخبرتني في يوم من الأيام بأنها قد أحبتني لكنها تجنبتني عندما علمت بأنني متزوج، وقد احترمت ما قالت وعاملتها كصديقة وكأخت، لقد ساعدتني في بحثي وفي رصدي الخاص بالحدث السياسي الذي حدثتكم عنه، وقد انقطعت بغتة، فعلمت أنها قد غادرت، لقد أحبتني لكني لم أحبها، فما تظنه حبا قد لا يكون حبا وما تظنه كرها قد لا يكون كرها، فاحذر مشاعرك، لأنها حالة من اللخبطة في الكثير من الأحيان، إلا أنها منظمة بدرجات عند الجميع، ورغم ذلك من الممكن أن تتلاعب بك في إصرار.

ملاعبة العواطف خطرة، العواطف تتصل بالشغف في معظم الأحيان، شغفك تجاه شريكك، شغفك تجاه عملك، شغفك تجاه كل شيء، وإذا نالت منك اللخبطة، انقلبت حياتك وفشلت الخلطة، فاحذر المشاعر واضطرابها، حاول أن تجعلها مستقرة لا باردة، اجعلها تلتهب بشكل متوازن مستقر، فالتطرف مذموم وذو تبعات سيئة لا تحصى.

بعدها، كنت أقوم بالأعمال بمفردي، كنت مصمما على تغطية الحدث والكتابة عنه ونقله إلى مصر، فقد وكل إلى الأمر، ليعرض ضمن الملف الذي يخص العالم الخارجي، وقد كنت أنقل الكثير من التفاصيل أول بأول، وهو ما جعل المؤسسة الإعلامية وقتها تساندني بقوة وترسل لي كل الدعم والمال المطلوب.

كانت صفقة ممتازة، كنت أشعر بأنني أقدم على فعل شيء مهم، شيء قادر علي منحي الحماسة وإشعال اللهب وإثارة الذهن وشحني بالتفاؤل، فعندما يشحن المرء بالحماسة يكون قادرا على المواصلة، وهو أمر مطلوب بشدة كي تحقق ما تريد، أو تقترب منه.

ليس عليك أن تلمس ما تريده، فأحيانا يكون الاقتراب وحده كافيا، الاقتراب من الأشياء قد يمنحك سعادة تشبه سعادة احتضانها، وستدرك ذلك مع الوقت، لأن الحصول علي الأشياء يصبح أقل بريقا مع الوقت، وإن تحركت بداخل دوامة المكتسبات، صرت أسيرا للحركة دون ثبات، الحركة دون شعور بشيء، فتصل إلي المرغوب وتتركه سريعا من أجل المرغوب الجديد، وحينها تصبح حياتك مبنية علي التكيف دون إحساس، تصبح خالية من المحسوسات، محسوسات التجربة الحسية الأصيلة الدافئة، وهو أمر ليس بيسير في حقيقة الأمر، أمر تقف الكثير من العقبات في طريقه، لأن العصر سريع والزمن يجري بسرعة وكل ما نفعله يتطلب سرعات عالية، فصرنا أشبه بالروبوت الأحمق اللعين.

الأمر أشبه بمن يدخل في علاقات كثيرة، فيصبح الأمر مملا مكررا بالنسبة إليه مع الوقت، ومن يعمل كثيرا فيصبح الأمر مفعما بالضجر بالنسبة إليه مع الوقت، ومن يريد شيئا جديدا كل

يوم، كالطفل، كالطفل الصغير الذي يبكي راغبا في حلوي جديدة كل يوم، كل ساعة، كل لحظة، فيصبح الأمر صعبا مع الوقت، ويبكي بحرقة كثيرا.

يصب دموعا، ها هي الدموع تنزل من عين الطفل الصغير، يريد المزيد، ولكن عندما يكون الإنسان راشدا، ويفعل ما يفعله الأطفال، يصبح الأمر كارثيا ويصير عرضة للسخرية والاستهزاء، ولهذا من الضروري التأني، وكبت النفس بين الحين والآخر، لعلها تدرك الصورة المطلوبة داخليا وخارجيا.

لقد حققت نجاحا عبر العمل هناك، لكنني كنت في حاجة إلى فاصل لعلني أشعر بالنجاح التالي، وهو ما يمثل المطلوب، ولهذا أخذت فاصلا ليس بالقصير قبل أن أعود إلى عمل صحفي جديد، وقد هيئت لي البيئة ذلك في حقيقة الأمر.

لقد لاعبني الظل هناك كثيرا، لاعبتني نفسي الخفية، لاعبتني القيم المرفوضة المكبوتة والمشاعر الحزينة الخفية التي لا نظهرها للكثيرين، لكنها قد تظهر أيضا بصورة ما، لاعبتني الكثير من العواطف الطيبة أيضا، فكان الأمر خليطا، وكانت العواصف مثيرة وموضع تحليل عميق لا ينفك عن مغادرتي.

إننا نخفي الكثير بداخلنا، نخفي صراعاتنا مع القيم المجتمعية ومحاولتنا مواكبتها، نخفي كفاحنا وحروبنا، نخفي بحثنا عن الشريك المميز، نخفي صراعات لا تحصي، لكننا نظهرها أيضا بكل سهولة بعد كل هذا المجهود المبذول بهدف إخفائها، وهو ما يثير الضحكات في الأرجاء.

ستكتشف مع الوقت كم كنت ساذجا حينما ظننت في صغرك أن إخفاء الأمور سيجنبك الكثير، فمن عبر عن نفسه استفاد بشكل أكبر، ورغم ذلك هناك أمور لابد من سترها بكل تأكيد.

-١٠-

أجلس عند الشرفة التي تعبرها أشعة الشمس الذهبية، تسقط الأشعة بشكل مميز قادر علي منحي الدفء والجمال، فنحن نحتاج دفئا كل يوم، كي نمنح أنفسنا ما يساعدها على المداومة، والمداومة هنا تعني مداومة الوعي والنفس، الوعي الذي يحتاج إلى الدفء، والنفس التي تحتاج إلى التفاؤل، إن قوة الصمود ليست بالأمر اليسير، إنها في حاجة إلى تجديد، فكي تكون صامدا كل يوم، عليك أن تستجلب كل الأجواء المحتاجة، وهو ما يعد أمرا محوريا.

اتهم الكثيرون كتاباتي بأنها مثبطة، وأضحك كثيرا عندما أسمع ذلك، إنني كائن صغير يتمني لكم جميعا النجاة والتوفيق، لكني كتاباتي كانت ترصد الواقع والخيال، كانت تدعو إلى التفاؤل لكنها في الوقت عينه كانت تشرح التشاؤم، كنت أرصد الغرور لكنني لم أكن مغرورا إلا نادرا أو في بعض الأحيان، لقد عرفت بالتواضع والصمت والتفاؤل في واقعي، وعرفت بالنقيض في كتاباتي، فكانت كتاباتي أشبه بالمتنفس، فقد تمتعت كثيرا ولم أظهر ذلك، لم أكن أثرثر كما يثرثر الكثيرون عن أمجادهم الوهمية، يثرثرون كثيرا، كثيرا جدا، ورغم ذلك لا بأس بذلك، فالإنسان في حاجة إلي التعبير عن نفسه، ولهذا من الضروري أن نسمح للآخرين بأن يعبروا عن أنفسهم كما نعبر عن أنفسنا.

حلت زوجتي ومنحتني كوبا من الشاي، كان كوبا مميزا للغاية، لطالما أحببت الشاي كما أحبه الجميع، لقد حاولت أن أظهر الاستثناء ثم أبطلته، أضحك كثيرا، أضحك دون توقف، ولكن لنكمل، لقد أحببت شاي يوركشاير الإنجليزي، يوركشاير جولد،

كنت أشربه كل يوم، وقد كنت أجد صعوبة في إيجاده، قد يبدو الأمر بسيطا، لكن لا بأس بأن نشغل أنفسنا ببعض الأمور الصغيرة بين الحين والآخر، كي نقلل من لهيب الدنيا، لهيبها الذي يحتاج إلى التهدئة بين الحين والآخر، منعا لانفجار البراد الزجاجي.

قد يكون زجاجا مقاوما للحرارة صنع في التشيك المعروفة بذلك، ولكن الحذر واجب في حقيقة الأمر، ففي الكثير من الأحيان تخدعنا درجة مقاومة الأشياء، وهو ما يمثل أمرا ملحوظا مع التجربة.

لقد جلست الزوجة، وطبعت قبلة خفيفة على خدي، وأخبرتني بأنه من الضروري ألا أفكر كثيرا، فالسن الكبيرة لا تتطلب كثرة التفكير، فكثرة التفكير مناسبة للصغار أكثر من كونها مناسبة للكبار، فأخبرتها بأن التفكير متعة بالنسبة إلى سواء كان متفائلا أو سوداويا، فالسوداوية ممتعة أيضا ولكن ضمن سياق خيالي لا يؤثر على النفسية بشكل مباشر، فاتفقت معي وحضنتني باتجاه ظهري.

عندما أتذكر الماضي، أشعر بأنه قد حدث البارحة، نعم، صدقني، الزمان سريع، وحديثي عن كونه سريعا لا يعد رغبة في الهروب، لكنها رغبة في التهدئة من وطأة الأمور، كمن يحدثك عن تلاشي الجميع، فلا يعد الأمر وقتها طلبا للشر، لكنه طلب لقتل المخاوف، فكثرة المخاوف تزول عندما تتقبل طبيعة التلاشي، وهو تقبل لا يعني عدم الإقبال على الحياة، لكنه يعني العيش بتوازن، العيش ضمن إطار مناسب رزين، فتصبح النفس خائفة عندما تقدم على فعل

المبيقات وتصبح سعيدة عندما تقترب من الإله، فوضع الآخرة بشكل دائم في الحسبان أمر هام، من أجل التوازن والرشاد.

-١١-

بينما كنت أستمتع بأشعة الشمس الذهبية في حديقتي وأتناول شطيرة التفاح وأشرب الشاي، زارني صديقي العجوز مجددا، جلسنا نتحدث عن الكثير من الأمور، تنقلنا بين الموضوعات دون هوادة، سعدنا بالجلسة بشدة، وكنت ممتنا لزيارته الرائعة التي صارت مكررة وممتعة.

لقد جلس يحدثني عن بعض إنجازاته التي ولت، أخبرني بأنه قد قام بتغطية حدث صحفي سياسي في يوم من الأيام، وبأنه قد اكتشف في نهاية المطاف أن الحياة كانت معقدة لنظرته لا لحقيقتها، فالعقول تكبر الأمور، وكلما تقدمنا إلى الأمام، أدركنا صغرها، وهو أمر يحالف كل إنسان ويصادف كل كائن ظن أن الموضوع كان أكبر من اللازم، فالكثير من النقاط تتضح حقيقتها مع الوقت، والكثير مما حسبناه صعبا مر بلطف الله.

لقد حقق نجاحا كبيرا بعد التغطية، إلا أن أمرا صعبا قد حل عليه يومها، فقد كاد على وشك أن يفقد حياته بينما كان يعبر طريقه، وقد فكر لوهلة، فكر مع نفسه، ورأي أن كل هذا التفكير قد يصبح عبثا في ظرف ثوان، نعم، من الممكن لكل شيء أن يطير في ثوان، ولهذا من الضروري ألا نفكر كثيرا في حقيقة الأمر، فقد علمه هذا الموقف أن الأمور لا تستحق كل هذا التفكير، فالتفكير العميق مدمر وممرض، إلا أن التفكير العميق يكون لذيذا حينما يتناول القضايا العامة والنقاط الفلسفية والفنية والعلمية، لأنها تشغلنا عن صراعات الحياة.

الكثير من الأمور التي تجهدك، تساعدك كي تعبر في حقيقة الأمر، تعبر الجسر، لأن الإجهاد يفرغ العقل من أفكار سلبية منهكة، ولكن الإنسان عليه أن يستعد لمقابلتها أيضا بين الحين والآخر، مهما أنهك نفسه، لأن هناك فواصل بين الفينة والأخرى، وهو أمر منطقي ضروري لا مناص من مقابلته.

لقد أخبرني بأن الكثيرين يظهرون على السوشال ميديا ليتحدثوا عن أهمية التفاؤل والإشراق، لكنهم في حقيقة الأمر يرصدون اللحظة الحماسية فحسب، أما اللحظات الصعبة، فإنهم يحتفظون بها لأنفسهم، وهناك على النقيض، من يظهر التشاؤم باستمرار، و لا يقوم بعرض اللحظات الحماسية ويحتفظ بها لنفسه، وهناك أيضا من يظهر الأمرين دون أن يعبأ بشيء، وهو الأمر الأفضل في حقيقة الأمر، فالتعبير عن النفس ضرورة، ضرورة قصوى في هذا الزمان، وفي كل زمان.

وبينما كنا نتحدث، سمعت صرخة تدوي في الردهة، فزعت، غادرت مطرحي، تركت الضيف، لكنه لحق بي، لقد سقطت زهرية غالية ووقعت على الأرض، فتحولت إلى قطع صغيرة، وكانت الزوجة تبكي بشدة بعد أن تسببت في ذلك دون قصد منها، إلا إنها قد هدأت بعد أن هدأتها وأشربتها بعضا من الليمون بالنعناع.

انظر يا عزيزي، انظر إلى ما حدث، لقد عاشت هذه التحفة الفنية لسنين طويلة، وها هي تلقي حتفها في لحظة، فبعد كل هذه المحافظة، وبعد كل هذا الاهتمام، تصبح الأشياء عبثا يطير في الهواء، تصبح عبثا بلا معني، هل تتذكر عدد المرات التي أخبرتك

فيها بأن تكون حذرا عند التعامل معها؟ هل تتذكر كم مرة أخبرتك بأن تهتم بها وتنظفها بحذر ورعاية؟

كانت هذه الكلمات على لسان زوجتي التي صعقت لما حدث وحزنت لما وقع، لكنني سرعان ما أخبرتها بأنها طبيعة الدنيا، وبأنه من الضروري أن نتقبل الحقائق دون إنكار، فكل شيء فان، ولكل شيء أجل، والأمر نفسه مطبق على كل إنسان.

كانت ساهمة زائغة العينين، فقبلت عليها، طوقتها بذراعين منهكتين عجوزتين، طبعت على جبينها ألف قبلة، وأخبرتها بألا تهتم بشيء، وبأن تهتم بمزاجها، وهو أفضل شيء.

نظر إلي صديقي العجوز، وأخبرني بأنه من الضروري أن أقدر الموقف، فأحيانا علينا التوقف مع أنفسنا كي ندرك حجم الخسارة، وهو ما قد يساعد في تجنب المزيد من الخسائر مع الوقت، لقد أدركت أنه كان يخبرني بضرورة أن نمنح كل شيء حقه، فمن اللائق أن نمنح كل المشاعر حقها، وأن نعبر عنها بشكل كامل، لعلها لا تترسب، فنمنعها من التراكم والانفجار لاحقا بشكل مفزع.

وكما يقول فرويد، (المشاعر المكبوتة لا تموت، لكنها تدفن حية، وتعود لاحقا بشكل مروع)، ولهذا من الضروري أن نمنح كل شعور حقه، عبروا عن أنفسكم، أحبابي، عبروا عن أنفسكم حتى القمة، ففي التعبير متعة مهما كانت الهيئة، ومهما كانت الصورة المخيمة، لأنكم ستدركون مع الوقت سذاجتنا، وستدركونها حينما يمر الزمان، ويتحول كل شيء إلى أشياء لم تكن في

الحسبان، ستتحور الأبعاد، ستتغير الأمور، وسنكتشف حينها أنه كان من الأجدر أن نعبر عن أنفسنا بالصورة المناسبة وفي الوقت المناسب.

-١٢-

حل الليل، أظلمت السماء، ظهر القمر ساطعا كوجه فتاة جميلة يستحق أن نتفرس فيه، أحسست بجموح شديد رغم السكون، أحسست بأن هناك من يعيبون على هذا الجموح، هذا الجموح المتنكر، هدأ الخيال مجددا، وواكب السكون المناسب للبيئة الساكنة الحالمة، أحسست بأنني سأقع من أعلي السرير، شعرت بأن هناك من يرقد تحته ويطلب مني أن أنزل إلى الأسفل، وكانت زوجتي نائمة تتنقل بين الأحلام التي لا تحصي.

نزلت، وجدت امرأة كانت تلاعبني في صغري، كانت تحمل اسم زوجتي أيضا، وقد وصفتني بالوسيم في يوم من الأيام بينما كنا في الحرم الجامعي، إلا إنني عندما أخبرتها بأنها تعجبني، أخبرتني بأننا كالأخ والأخت، فتراجعت، تراجعت بعد أن تعاملت بعفوية وسهولة كعادتي عندما يتعلق الأمر بهذه النقاط، إلا أن القدر قد منحني زوجتي التي تحمل الاسم عينه، وكانت أجمل وأذكي وأفضل بشكل لا أتخيله، فحمدت الإله في كل لحظة لعطيته ومنحه التي لا تحصي.

أخبرتني بأنها عاجزة عن نسياني، فقد أحبتني لاحقا وقد أدركت خطأها، إلا إنني قد تجاهلتها، وقد عدت إلي القمة مجددا، فنمت نوما عميقا، فكنت بداخل حلقات متشابكة من الأحلام التي لا تحصي، وقد داهمني حلم جديد، فنزلت إلي أسفل السرير مجددا، وكانت الإضاءة الحمراء تزين الغرفة معتمدة علي الأباجورة الصغيرة في الجوار، وقد وجدت رجلا يحدثني عن أمور لم أفعلها، وقد اتهمني بأحداث قد تسببت في نشوبها، وأفكار قد زعزعتها، وأحلام قد

وضعتها في تابوت لا مناص من أن توضع فيه، فأخبرته بأنني قد حققت كل ما رغبت فيه، وحدثته بأنني لا أرغب في المزيد، ووضحت له أنني قد فككت التجربة للكثيرين وأشعرتهم بأنها عبثية، لكنني سعدت لأجلهم وحدثتهم عن أهمية النجاح كما حدثت نفسي، لكنني أكدت علي ضرورة أن ندرك الأهداف بدلا من أن ننساق وراءها كالأنعام، لأن الكثير من القيم التي يظهرها الغرب علي أنها درر، قد لا تمثل في نهاية المطاف سوي سراب.

ضحك كثيرا، لم يتوقف عن الضحكات، لم تفارقه الضحكات بأي شكل من الأشكال، ظل يقهقه كالمعتوه، وقد أخبرني بأنه لا يهزأ بي لكنه يعتقد أنني أكذب، فضحكت بشدة، ووصفته بالأحمق وعدت إلى القمة، وقد استيقظت من نومي، فوجدت زوجتي تبتسم وتقول: (إنك تحدث الكثير من الجلبة أيها اللعين، عليك أن تنام وتصمت لبعض الوقت، ففمك يطلق الكثير من الكلمات غير المفهومة وتتقلب كثيرا دون ثبات).

نمنا في عمق، نمت ولم أحلم ليلتها مجددا، وكأن الحلم قد توقف خوفا من الوعيد، وقد كان نوما هنيئا ناجعا في حقيقة الأمر.

-١٣-

عندما استيقظت في الصباح، ذهبت مع مجموعة من الأصدقاء إلي بول، وقد جلسنا نفطر ونشرب القهوة، وقد قدموا إلينا البيض والمشروم والخضار وبعض الفطائر اللذيذة، إلا أن بريوش دوري كان محببا إلى قلبي بشكل أكبر.

سألني صديق عزيز عن رواية قديمة أصدرتها في شبابي، أخبرني بأنه قد لاحظ تحدثي عن التمرد والخطيئة الأصلية كثيرا، سألني عن سر تركيزي على هذه النقطة بشكل مستمر وسر اهتمامي بتشريحها.

أخبرته بأن التمرد والخطيئة الأصلية بمثابة المركز فيما يخص المتاهات التي ولجناها وولجتها عقولنا بشكل واضح، وضحت له أنها قد غفرت بالتأكيد وفقا للفكر الإسلامي، وأنها لا تمثل مبررا لأي خطأ آخر، لكنها تعبر عن البداية، وبتشريح البداية، يمكننا أن نفهم الكثير من النقاط، كما أنني قد وصفت بالمتمرد في بعض اللحظات من قبل عائلتي، ولهذا كان الأمر حاضرا في ذهني بشكل من الأشكال، لكنني في الحقيقة كنت إنسانا مستقيما في معظم الأوقات.

لقد أخبرني بأنه قد قرأ لي رواية تدعي (نباح الكلاب)، وأنها قد أعجبته بشدة لأنها قد ناقشت الوهم الذكوري والأنثوي، فأخبرته بأنني قد كتبتها في فترة قصيرة للغاية، ووضحت له أنها تخبرنا بأن كل النساء واحدة في نهاية المطاف، حتى ولو أظهرت الدنيا غير ذلك، إلا أن المتعمق سيدرك مع الوقت أن كلهن واحدة، كما هو

الحال مع الرجال، إلا أن تقابل روح مع روح يجعل من التوافق بين اثنين أمرا ممكنا ومتاحا، فبتوافق الأرواح، يصبح الاستمرار ممكنا في حقيقة الأمر، وكل شيء بيد الله عز وجل بكل تأكيد.

ضحك صديق آخر، وأخبرني بأنه قد ألف رواية قصيرة في الماضي، رواية خلابة وفقا لآراء بعض النقاد، وقد تحدثت عن موقف مشابه أو قصة مشابهة، لكنها قد وصفت حقيقة العلاقة بين الذكر والأنثى موضحة أن هناك خفايا تلاعب العقول الباطنة لكنها لا تظهر للعلن كي تستمر العلاقات، فأخبرته بأنني أتفق معه، وقد حدثته بأن التجاوز أمر مهم حينما يتعلق الأمر بالعلاقات، لأن العقول الصغيرة مدمرة، إلا أن العقول الكبيرة قد تتحول إلي عقول صغيرة في ثوان، ولهذا من الضروري أن ندرك حقيقة أن الأمر بأكمله بيد الإله، كما هو الحال مع كل شيء في حقيقة الأمر.

أخرج صديق ثالث رواية تدعي (فتاة القطار)، وضعها فوق المنضدة، فاهتزت القهوة وسقط بعضها فأغرقت المساحة الصغيرة في لون بني غامق كشف عن سوداوية وصراع، وقد كانت الرواية مفعمة بالدراما بالفعل، وقد عرضت على هيئة فيلم منذ سنوات، وكان من بطولة إيميلي بلانت وفقا لما أعتقد، إلا أن الرواية كانت أعظم وفقا للكثيرين، وهو ما حدثنا عنه الصديق ذو اليد المهتزة، إلا إننا قد تجاوزنا الموقف سريعا، وقد تحدثنا طويلا.

حل الغروب، غربت الشمس، غربت وغربت الجلسة بغروبها، فلكل شيء نهاية، وكل نهاية متصلة بحكاية، إلا أن الكثيرين يحزنون عند قدوم النهاية، وهناك من لا يحزن بنفس القدر عندما تنتهي الأمور، والجلسات الجميلة سريعة كما تعلمون، فكلما حاولنا

الاندماج، مر الوقت سريعا في ثبات، وكلما حاولنا الهروب، جاء ما يخبرنا بضرورة الاستعداد لليوم الموعود، وبهذه الكيفية، تجري قصص البشر وكأنها أفلام، وتمر أجمل اللحظات وتتحول إلي أحلام، إلا إننا عندما نعيشها مجددا قد لا نشعر باللذة التي أدركناها وقتها، فالخيال كثيرا ما يلاعب الإنسان، وبهذه الكيفية نتخيل سيناريوهات قديمة ونحاول أن نعيشها مجددا، ونتخيل سيناريوهات مستقبلية ونحاول استعجالها، إلا أن المقدر سيقابلنا والمعلوم لا نعلم عنه شيئا، فما نحن إلا أدوات، أدوات تدرك حقيقتها في نهاية المطاف.

-١٤-

حل وقت العشاء، وقد حلت ابنتي وزوجها، واجتمعنا مع زوجتي، وقد كانت الأجواء دافئة هنيئة، وكانت المنضدة مفعمة بالكثير من الخيرات، إلا إنني قد تحدثت عن العشاء وعن كونه ثقيلا في مثل هذه الأوقات، فأخبرتني الزوجة بأننا نحتفل بعيد ميلاد زوج الابنة، فصمت سريعا، وتمنيت له حياة مديدة.

الدجاج يغطيه البيري بيري، اللحم تغطيه خلطة مونتريال الكندية، الأرز بطريقة مكسيكية قد طبخ وبقلب خالص قد أعد، وهناك وجبات فلبينية تلاعب المنضدة، البانسيت والأدوبو والأروزكالدو، وهناك أيضا بعض من قطع البيتزا النيويوركية العملاقة.

كنا نأكل في شراهة، كنا نتنقل دون هوادة، كان مشروب الكولا المعتمد على الستيفيا يزين المنضدة، وكان الشاي بمثابة المشروب الرسمي بعد أن انتهينا من وجبتنا الدسمة التي تبقي منها الكثير في حقيقة الأمر.

الكعكة كبيرة، كعكة الاحتفال، كعكة عيد الميلاد، وقد نال كل منا قطعته، وكانت جميلة خلابة، كانت لذتها تفوق الخيال، كانت لذة لا نهاية لها، لكن اللذة قد تتبع بألم، قد تتبع بتعب، ولهذا من الضروري وضع الحدود، قبل تجاوز الأمور، فلكل شيء قدر، وعندما تكون أمامك كعكة كبيرة، يصبح من الواجب أن تدرك حقيقة أنك لن تحصل سوي علي جزء منها، لأنك إن حاولت الحصول علي المزيد، أرهقت، وإن حاولت أن تتلاعب وتستمتع بمزيد من القطع، وجدت الأمر صعبا، وإن أخذت بعض القطع وخزنتها بالثلاجة

من أجل الأيام اللاحقة، عجزت عن الاستمتاع بها كأول مرة كما كانت طازجة، ولهذا من الضروري التأني ووضع الحدود.

كان الرجل فرحا لكن مشاعره كانت مختلطة أيضا، وعندما أحسست فيه ذلك، أخبرته، فأخبرني بأنه يكون مضطربا في كل عيد ميلاد، لأنه لا يعرف وقتها إذا كان من الضروري أن يسعد لكبره ورشده أم يحزن لاقترابه من الموت.

أخبرته بأنه من الضروري ألا يمنح الأمر هذه المساحة من التفكير، وأن يسعد باللحظة وبالأجواء المشرقة التي تحالفها، كما أنني قد نبهته إلى أن الموت معبر، وبأننا كنا موتي ثم عشنا، كما أننا نموت مجددا ثم نعيش في دار لا تفني.

أخبرني بأنه كثيرا ما أحب الاستماع إلى كلماتي، وقد أخبرتني الابنة بالمثل، إلا أن الزوجة قد أظهرت امتعاضا وطلبت مني أن أغير الموضوع وأستمتع بالاحتفال الذي لا يتكرر كثيرا، فاتفقت معها، وجلسنا نتحدث جميعا عن الكثير من الأمور المزهرة التي خصت بيئة الخيال والمستقبل والجمال والأحلام والأمنيات التي لا تحصي، تلك الأمنيات التي تجعلنا قادرين علي المواصلة، تلك الأمنيات التي تجعلنا راغبين في الاستمرارية من أجل تحقيقها والوصول إلي حوافها، ولكن هناك بالطبع بعض الإرهاق بينما نتحرك إلي الأمام، وقد أخبرتني طبيبة أسنان كانت تعالجني في يوم من الأيام، بأن الحياة معركة، خاصة عندما نتأملها إلي الوراء.

أنتم تعتقدون أنني أبالغ عندما يتعلق الأمر بالكثير من النقاط، لكنني أفعل هذا منذ صغري كي أبني الخيال، فالخيال لا يبني إلا

بالاعتماد على العواطف المبالغ فيها، وبهذه الكيفية يحدث الشد ويجذب الانتباه، وهو ما يمثل الحيلة التي يلجأ إليها الكثير من الرواة.

-١٥-

في الصباح الباكر، استيقظت، فرشت أسناني، غسلت وجهي، تبرزت، شربت بعض الماء، توضأت، صليت، جلست أشاهد التلفاز بينما كنت أكل بعض الفطير بالعسل الأسود، وقد لاحظت أن هناك شيئا يلاعبني في الجنينة، لم أزعج الزوجة، خرجت، وجدت كلبا يجري دون توقف، يبدو أنه قد أفلت من صديقه أو صديقته، لقد اكتشفت أنها صديقته، لم يكن صديقه، كانت صديقته في حقيقة الأمر.

لقد اشترت بنت الجيران كلبا غريبا كي يسليها في غياب زوجها الغائب، وقد ضحكت واعتذرت عندما وجدتني واقفا أمامها بروبي الطويل ذي الألوان المتعددة، ضحكت دون توقف، أخبرتني بأنها سعيدة لرؤيتي في هذا الصباح المميز، وقد دعوتها إلى بعض الشاي لكنها رفضت لانشغالها، إلا إنها قد وعدتني بأن تزورنا قريبا.

عندما تتأمل هذه الفتاة الشابة النابضة بالحياة، وتتفرس في ملامح الحماسة التي تحاول أن تجلبها إلي حياتها، وتتذكر الماضي والشباب، تدرك أنه من الضروري أن ننتهز الفرص والأوقات السعيدة، تدرك أنه من الضروري أن نستمتع بأوقاتنا وألا نمعن التفكير في خطط قد لا تأخذ سياقا مستقبليا ضمن العالم الواقعي، فكل البشر قد عاشوا خططا في خيالاتهم، وعاشوا أخري في واقعهم، لكن الأذكياء هم من يعيشون الخطط في الواقع بينما يتخيلون سيناريوهات بسيطة قدر الإمكان، أو سيناريوهات بعيدة دون تفكير عميق مرهق، فالفنتازيا مهمة لكن ضمن إطار واقعي قدر الإمكان، وضمن سخرية تجعل من الواقعي مقبولا بكل الأشكال، وهو ما يمثل النمط الصحيح لحياة صحية سليمة قدر المستطاع.

إن التخطيط قد يكون كبيرا بقدر مشروع أو عمل مهم نقدم على فعله، وقد يكون بسيطا بقدر كلب نرغب في الحصول عليه، فالأمر بأكمله يتعلق بضرورة أن نخلص لشيء ما، لعلنا لا نصاب بالجنون أو الفتور، وهو ما يمثل النهج الذي يسير عليه كل إنسان.

لقد شغلت ذهني بالكثير من الأمور الصغيرة في صغري، وشغلته أيضا بفكرة التلاشي وبالفلسفة، وكانت النتيجة ممتازة، فلم أفكر بعمق في أمور مهمة أو كبيرة يمكنها أن تزعزع استقرار نفسي، إلا إنني كنت أفكر فيها بين الفينة والأخرى كما هو الحال مع كل إنسان، وإلا وصفت بالمجنون، كما تعلمون، فالقطيع يفكر بشكل واحد كما تدركون، ولو حاولت الخروج عن معايير المجتمع الحديث، وصفوك بالمخبول، إلا إنهم كلهم واهمون، كلهم واهمون، وكم من رجل فارق الحياة ووصفها بالخدعة في نهاية الطريق، وكم من إنسان تلاشي وكانت كلماته الأخيرة متصلة بحقيقة الدنيا المتلاعبة، إلا أن الوهم يتطلب إدراكا وعيشا بشكل من الأشكال، لعلنا ندرك أمور الحياة ونعيش ما يجب أن يعاش، فلا نستبق الأمور ولا نعيش كالمهووس، وهو ما يمثل سنة الحياة بالنسبة للإنسان الحكيم قدر الإمكان.

لقد عادت الفتاة مجددا، يبدو أنها قد أنهت ما كان يشغلها، وقد أخبرتني بأنها اعتقدت أن الأمر قد تتطلب وقتا طويلا، لكنها بمجرد أن عادت إلى منزلها، أنهته في دقائق معدودات، وهو شأن الكثير من الأمور في حيواتنا، تلك الأمور التي نعتقد أنها ستستغرق وقتا طويلا ونحمل همها كثيرا، لكننا بمجرد أن نصل إليها نقوم بها في أفضل صورة وفي سرعة أيضا.

لقد جلست معي في الجنينة، وكانت زوجتي قد استيقظت، فانضمت إلينا، وقد جلسنا نتحدث عن الكثير من الأمور التي لا تحصي، حدثتنا عن زواجها وعن المسئوليات، نثرت إلينا الكثير من التفاصيل التي تخص زوجها كالساذجة الصغيرة، أخبرتني بأن الرجال يسيطر عليهم العناد بوضوح والغرور بشكل لا يصدق، فكل منهم يعتقد أنه مركز الأرض، إلا إنهم يدركون حقيقتهم مع الوقت، فأخبرتها بأن هذه الحماسة تمكن الإنسان من مسايرة أموره، كما أنه من المعروف أن كل إنسان سيدرك حجمه مع الوقت، ومن لا يدرك ذلك طواعية، يدركه غصبا.

أخبرتها بأننا نتحدث عن العمل والسفر والزواج والمتعة والأنشطة المختلفة، محاولين أن نظهر التميز، محاولين أن نرضي جانب الإنجاز، إلا إنه مرهق في حقيقة الأمر، ولو سألنا علماء النفس عن هذا الدافع، لأخبرونا بأنهم لا يفهمونه بشكل واضح، لأنه يعد واحدا من الدوافع التي لا تمتلك عوامل واضحة أو ملامح ثابتة، كما أنه يختلف بين البشر أجمعين، فهناك من يريد أن يحقق درجات عالية جدا من الطموح، وهناك من يرغب في الأقل، وهناك من لا يريد شيئا مع الوقت، وهناك من يعيش صدمة غير مفهومة، وهناك من يعيش الروحانية، وهناك من يدعي الروحانية، وهكذا.

لقد أخبرتها بأن دافع الإنجاز مهم بالنسبة إلى الإنسان، فمن الضروري أن يكون هناك غرور يمثل البذرة، لكن من المهم أن يتحول بعد ذلك إلى إنجاز مصحوب بتواضع لا بتكبر، وحينها يصبح الغرور الأولي شيئا مفيدا مثمرا، لأنه يكون وقتها قد سلك الطريق الصحيح، أما الغرور الذي يترعرع بشكل مفزع ويتحول إلي

غرور أكثر عمقا ومركزية، فإنه يرهق صاحبه مع الوقت ويلقي به في آتون الجحيم.

ضمت رجليها، ابتسمت، أخبرتني بأنها لا تحب كثرة التفلسف، وقد احمر وجهها، لأنها شعرت بأنها قد أحرجتني دون قصد منها، لكنني لم أحرج في حقيقة الأمر، فحمرة وجهي كانت تصاحبني باستمرار، ولم تكن تعبر سوي عن طبيعتي لا عن إحراجي، أما أحاسيسي فقد كانت معطلة في معظم الأوقات.

كنت باردا كرجل إنجليزي لعين يعيش في الصقيع، كنت كقطعة ثلج رغم حمرة كشف عنها وجهي باستمرار، ولا أتفوه بمثل هذه الكلمات محاولا أن أرتدي قناعا بأي شكل من الأشكال، فقد كنت رجلا باردا، إلا أن الدفء كان يسيطر علي بين الحين والآخر، وكنت أسعد بزيارته في حقيقة الأمر.

قدمت زوجتي إلينا بعض الشاي، كانت قليلة الكلمات كعادتها، لم تتحدث كثيرا، قدمت بعض البسكويت أيضا، بسكويت اللوتس المغلف، وقد أخبرتنا بأن الأجواء جميلة وصمتت، فحدثتهما بأنه من الضروري للمرء أن ينعم بمثل هذا الطقس ومثل هذه البيئة الخضراء كل يوم، لعله يرضي فطرته الطبيعية، فطرته التي حباه الله إياها، تلك الفطرة التي تنتعش في كل مرة ترضي فيها، فابتسمت الفتاة، وأخبرتنا بأن الطبيعة والأنثى رفيقتان، ولو تأملنا رينوار، لعرفنا الكثير حيال هذه البيئة، فأومأت برأسي، وابتسمت ابتسامة نمت عن إعجاب ودهاء.

انتهت الجلسة، وعدنا إلى الداخل، وقد تمددت فوق الأريكة وشاهدت التلفاز، إلا إنني قد قضيت قرابة الساعة متنقلا بين القنوات دون استقرار، فأغلقته وأمسكت بكتاب، كتاب يدعي (تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي)، وقد سعدت به للغاية، لكن هناك بعض النقاط التي لم تعجبني في حقيقة الأمر، وهي نقاط ظهرت في منتصفه ونهايته.

-١٦-

كثيرا ما تعجبت ممن وصفوني بالطيب، وقد تساءلت في أوقات عديدة عن عدم إعجابي بهذا الوصف، كنت أحس بشيء غريب، كنت أحس بمعان تختلف بشدة عن المعاني الصحيحة للكلمة أو للوصف، وقد كنت أصفهم بالطيبين في تبادل، لكنني صرت مدركا لمعني هذه الكلمة لاحقا، وصرت راغبا في أن أوصف بها بشكل مستمر، وقد رغبت في ذلك حينما أدركت معناها وحينما فهمتها بشكل أكبر وأعمق.

إن البشر سذج في حقيقة الأمر، إنهم يتحركون بداخل المتاهات، ويعتقدون أن أكثرهم انخراطا في المتاهات هو أكثرهم خبرة، رغم أنه في حقيقة الأمر أكثرهم سذاجة.

إن الحماسة تغطي على الكثير من الأمور، ولو نظرت إلى الشعب الأمريكي، ذلك الشعب الshowy بجدارة، ذلك الشعب الواهم بقوة، لأدركت أن الحلم الأمريكي منهك ووهم، ولعرفت أن حماستهم تغطي علي الكثير من الأمور، وكثيرا ما رددت العبارة الشهيرة، (لا يغرنك السطح الذي تلاعبه أشعة الشمس الذهبية، فالحقائق والدرر، كلها، في الأعماق).

إن كثرة المتاهات تنم عن السذاجة، وكثرة الطرق تعبر عن التشتت، وكم من رحلة فرقت أمر صاحبها، وكم من تجول أصاب صديقه بالفتور واللخبطة والخيال الذي لا يعرف الواقع، وكم من ترحال أنهك ميزانية صاحبه وأضاع ماله، إلا أن هناك مميزات أيضا للرحلات،

الرحلات الروحية التي توسع الأفق وتعلمنا الكثير من الثقافات الأخرى.

لكنني عرفت رجالا قد سافروا من أجل اللعب واللهو مع النساء رغم أنه متاح هنا، وعرفت رجالا قد سافروا من أجل دراسة وعمل لكن الملل قد تسلل بقوة، وعرفت رجالا قد اختلت منظومتهم الأخلاقية والفكرية بمجرد أن سافروا، وعرفت أيضا من حققوا نجاحا واستقرارا بشكل ما، لكن هذا الجزء الأخير مثل القلة في حقيقة الأمر.

إن الأوهام سيدة الموقف، ولطالما أشفقت علي البشر، ومنهم أنا، فكل ما هم فيه ناجم عن خطيئتهم التي التصقت بهم، وكي يتطهروا، لا مناص من أن يتخلصوا، فعليهم أن يتخلصوا من الأوهام والمادية الشرسة وعبادة المال، إنهم يحبون المال حبا جما، ومن يقرأ سورة الفجر، يدرك الكثير فيما يخص هذا الشأن.

كان عقلي يتنقل بين هذه الأفكار دون هوادة، كنت أتأمل الكثير من الأمور في المساء، كانت الأباجورة تمنحني نوعا من الدفء، وكان مشروب القرفة يمنحني انتعاشا وخفة.

-١٧-

عندما تغلي عيدان القرفة علي النار، لا تنضب بسرعة، فمن الممكن أن تستخدمها مجددا أكثر من مرة، لكنها في مرة من المرات، تصبح بلا جدوي، فنصبح عاجزين عن استخلاص ما فيها، وهو الحال مع الكثير من الأمور، فما نحصل عليه اليوم، قد لا نحصل عليه غدا، بل إنك عندما تتأمل ضربات قلبك، تدرك أنك ذو وقت، مثلك مثل كل شيء في هذه الدنيا، وسيكون نتاجك مرتبطا بضربات قلبك، وعندما تتوقف، تصبح مهمتك قد انتهت، مهمتك التي لا تعلم موعد انتهائها، لكنك رغم ذلك مصمم علي المضي قدما إلي الأمام، وهو ما يمثل المطلوب والمنطقي في حقيقة الأمر.

ولهذا من الضروري أن نقدر العطاء وأن نشكر الناس، وأن تكون الأولوية في الشكر لله عز وجل، وأن يكون الشكر مستمرا دون توقف، لأن الأمر بأكمله بيد الإله، وكثيرا ما تأملت الشخصيات التي تشكو كثيرا في تعجب، لكنني أدركت أنه لا بأس بذلك بين الحين والآخر، كنوع من التنفيس والتفريج والتلطيف، طالما أن النقد لا يتعارض مع شكر الإله، فمن الممكن أن تعبر عما بداخلك، وتشكر الإله في الوقت عينه، ولا يعد الأمر مفتاحا لتناقض أو شيء من هذا القبيل، إلا أن مع التعود، تصبح النفس أقل شكوى وأكثر صبرا، وهو ما يمثل المرغوب.

العقول التي تراها كل يوم، هي عقول متلونة متنوعة، عقول تلاعبها أفكار كثيرة، وما هو ثابت بالنسبة لعقل ما في بلد ما، قد يكون متغيرا وموضع نقاش في دولة أخري، إلا أن هناك حقيقة واحدة، وهي حقيقة تدركها أمم دون أخري، ولكن التنوع سنة الوجود،

كما هو الحال مع كل شيء، فدرجة الحجب تختلف بين الأمم، درجة العلم تختلف أيضا، درجة الاجتماعية، درجة التعري، درجة الإباحية، درجة التفاهم، درجة السلام، درجة التدين، درجة النفاق، درجة الإقبال علي الدنيا، درجة الإقبال علي الآخرة، إلخ، وهو أمر لا مناص من تقبله، ومن الممكن أن تتقبله دون أن تفقد منظومتك التي نشأت عليها ودعمت فكرك بها، وهو ما يعد أمرا يسيرا بالنسبة للشخصيات المرنة مقارنة بغيرها.

عندما تكون مراهقا، تتخيل النساء كثيرا، لكن مع الوقت، تشعر بغثيان، تشعر بتشبع، ويصبح الأمر عاديا بالنسبة إليك إلا إنه ينشط بين الحين والآخر، لكن بدايات الرحلة قد تلاعبك بين الفينة والأخرى، لكنها في الوقت عينه منسية، مدفونة، مهجورة، فالجديد يصب علي القديم، وهو أمر قد يبدو ساذجا، لكنه يعبر عن الكثير من الأمور، والأمر نفسه بالنسبة إلي الطعام، فعندما تأكل الكعك دون توقف، يصيبك الغثيان وقد تشعر بقرف، ولهذا من الضروري أن تعمد إلي الوسطية، ولو كنت قد أخذتك في متاهتي هذه محاولا أن ألاعب ذهنك، عزيزي القارئ، فإنني أقحمك فيها كي تعلم أن الغرب قد فتح الطريق بقوة أمام كل شيء، لكنه لن يتحمل الضريبة، لأن الملل سيصبح السيد، ومع فقد الحجب والوسطية والرفق بالنفس، سنصبح في غابة، غابة متشعبة، لأن فتح الطريق يعني الكثير من السياقات، وبتعدد السياقات، تختل العقول، ولهذا من الممكن أن نجد شابا ساذجا يحدثنا عن رغبته في كل شيء، في كل الألوان، في كل المنازل والسيارات والنساء والأعمال والأموال، وهو ما يعرب عن القصور الفكري والهشاشة التي لحقت بالواقع بسبب كثرة الخيالات وكثرة الأوهام، وهو ما نبهنا إليه الكثير من فلاسفة الاغتراب في الماضي في حقيقة الأمر.

تمنحني زوجتي كوبا من النعناع بينما أجلس فوق السرير مستعدا للنوم، لكن الأفكار تلاعبني دون توقف، أتأمل حالة ال exhibitionism المسيطرة علي العالم بهدف جمع المال وحصد الإعجاب، أتذكر أنها كانت تصنف علي أنها paraphilia في الماضي، وها هي تعامل في يومنا الحالي وكأنها أمر طبيعي، ورغم ذلك قد تعد خللا يجبر العالم علي التعامل معه بدعم من أيديولوجيات ومنظمات معينة، وقد يكون الأمر بأكمله أبسط من كل ذلك، فقد يمثل محاولة للتعبير بصورة حيوانية تشعر الإنسان بأصوله.

إنها حالة ممتدة بقوة في الوقت الراهن، حالة تدعمها نيتفلكس ذات الإنتاج المكرر الضعيف، ويدعمها انستجرام ذو الخيال غير الواقعي، ويدعمها العالم الواقعي نفسه في دول عديدة، ولهذا لم يعد الأمر استثنائيا، وصار الملل سيد الموقف، فالتعدي يؤدي إلى الخلل في النهاية، وقد نبهت كثيرا في كتاباتي إلى أهمية الحجب وتأثيراته المفيدة على الدماغ، فلا بد من التنوع بين الحجب والعرض، بين الوعي وراحة الوعي، بين العمل واللهو، بين الجد واللعب، وهكذا، من أجل حياة سليمة وعقلية مستنيرة.

وإذا تأملنا الأجيال الحديثة، لوجدناها أكثر تعاسة، رغم كثرة الإمكانيات، لأنها أجيال قد رأت كل شيء قبل الوقت المناسب، كما أنها قد أسرفت واعتادت السخط والتذمر، فكانت الضريبة كبيرة وكانت المتعة قليلة، رغم توافر مصادرها التي لا تحصي.

فقد كان جدي الراحل يشاهد فيلما واحدا في الأسبوع في صغره، أما الآن، فإن الأجيال تشاهد عشرات الأفلام في أسبوع واحد، ورغم ذلك فقد استمتع أكثر منهم بمراحل، لأنه أحس بالشيء ولم يتعود

عليه، وهو ما يمثل ميكانيزم العقل وكيمياء الدماغ في التعامل مع الأمور، فامنح عقلك الشيء دون إصرار، واعمد إلى الحجب بين الحين والآخر، ولكل شيء وقت، ولكل فعل عواقب وتبعات.

أخبرتني زوجتي بأن وقت النوم قد حل، وبأنه من الضروري ألا أحدث صخبا، وأن أنام بسرعة، فقفزت إلي بحر النوم، أنا، الرجل العجوز الذي نال الهرم منه، الرجل العجوز الذي يحاول أن يتأمل الشباب ويري نفسه فيهم!

-١٨-

في السفر تكمن متعة جميلة، لكن كي تشعر به، عليك أن تأخذ فاصلا، وهو ما يعد أمرا مهما للغاية. ثقافات عديدة، معمار مختلف، طعام جديد، جميلات كثيرات وقليلات، أطفال بملامح مختلفة، شيوخ بميول عديدة، مبان رائعة، جسور عظيمة، والأهم طبيعة خلابة، وهكذا، لكن عندما تلف كثيرا، سترهق حتما، وستقول حينها، Home Sweet Home.

كانت زوجتي تحدثني في الصباح بهذه الكلمات بينما كنا متوجهين للسوبر ماركت، كانت تحدثني عن الرحلات والمتع التي جمعتنا سويا، وكانت تستخدم صور الموبايل كي نتذكر بعض هذه اللحظات.

اشترينا بعض المأكولات الخفيفة، وأحضرنا زجاجة زيت زيتون من الإلياذة، وقد عدنا سريعا إلى المنزل، لكنني نزلت مجددا بهدف مقابلة بعض الأصدقاء القدامى.

لقد اجتمعنا في مقهى أرماني في مول قريب، وكانت القهوة سيئة للغاية، لم تستحق جنيها واحدا مما دفعناه فيها، فقد تفوق ستاربكس عليها بمراحل، بمراحل، رغم ضعفه في الآونة الأخيرة، وقد جلسنا نتحدث عن الأيام الخوالي، وعن متاهات العشق، وملاعب الطموح وأوهام المستقبل.

لقد نظر إلي صديق عرفته منذ سنين نظرة استهجان، هاجمني، أخبرني بأنه لا يحب كتاباتي وأنه يشعر بأنها كتابات مخبول،

فأخبرته بجملتي الشهيرة، (إن كنت لا تحب قصصي، فأخبرنا بقصصك)، فصمت واحمر وجهه، لأنه كان كاتبا ضعيفا، وكنا كلنا علي علم بذلك.

أخبرته بأن كتاباتي بمثابة المتنفس، وأنها لا تمثل المتنفس الوحيد عندي، وأشكر الله علي ذلك، وقد وضحت له أنه من المقبول أن ينتقدني، طالما أن الاحترام سيد الموقف، لكنني سرعان ما بينت له أننا كثيرا ما ننتقد الآخرين وننسي أن ننتقد أنفسنا، كثيرا ما نهاجم الأعمال رغم أنها صعبة، فالعمل ليس باليسير، وفي حاجة إلي مجهود كبير، ولهذا من الضروري أن يلقي أي درجة من التقدير، فالنقد السليم يعتمد علي ذكر المحاسن والعيوب، أما المهاجمة الشاملة، فإنها تعبر عن عاطفة كامنة، حقد دفين أو غيرة عميقة، وقد حذرته من الغيرة في طيبة، انظروا إلي طيبتي، أحبابي القراء، فها أنا أخبر صديقي الإنسان بكيفية التعامل مع غيرته، بدلا من أن يطور هو نفسه ما يساعده علي مجابهتها.

عندما تكون غير سعيد، لا تتسبب في تعاسة الآخرين، فمن الواضح أن هذا الرجل قد امتلأت حياته بالمشاكل، وها هو يتحرك في كل صوب محاولا أن يضايق الآخرين، لكنني تجاهلته رغم كونه صديقا قديما، وقد انتقل النقاش إلي موضوع جديد، موضوع طرحه صديق كان ناجحا بشدة في صغره إلا أن كاريره قد تلاشي في ثوان حينما انهارت أسهم شركته، وقد جلس يحدثنا عن الأعمال والتجارة، وقد أخبرنا بأن الحياة مكسب وخسارة، وبأن مع التقبل، تنشب النفس المثمرة التي تعبر دون ركود وتمر دون فتور.

أخبرته بأن الحياة ذات ألوان عديدة وأشكال كثيرة، نبهته إلى أهمية أن ندرك التغير والتنوع، فالإنسان المرن قادر علي المواصلة، أما الراكد، فإنه حتما سيلقي حتفه في يوم ما، ويبقي من الضروري أن نستمتع قدر الإمكان بالمتغيرات، رغم أننا سنتلاشى جميعا في نهاية المطاف، أما الثبات، فإنه شأن لا يعرفه البشر فيما يخص الكثير من الأمور، فالثبات ثبات قواعد وأصول، لكن التغير متصل بالحراك، ومتصل بكل ما يضخ في عروقنا الدماء.

لقد دعمنا جلستنا، نحن الخمسة، ببعض الحلوى من المقهى ذي القهوة السيئة، طلبنا خمس قطع من سان سباستيان تشيزكيك، كانت طيبة جميلة خفيفة، وقد استمر الحديث بينما كنا نلتهم بعنفوان ونأكل في شراهة ونظهر شهوة الحيوان ورغبة الترجمان في ترجمة الغرائز إلى أقوال وأفعال.

حدثنا صديقنا الذي لم يتحدث إلا قليلا، عن حقيقة أن البلاد تعيش أزمة كبيرة علي كل المستويات، أخبرنا بأن الموقف صار أشبه بالسيرك، فأخبرته بأن الصورة واضحة، ولكن العالم بأسره يمر بأزمة كبيرة، والفساد يطول الجميع، فأخبرني بأن الفساد قد استشري والجهل قد تعمق، فاتفقت معه، واتفق معه كل الحاضرين إلا أحد الجالسين، فقد أخبره بأن الأمور علي ما يرام وأنه يفكر بصورة حمقاء، فسرعان ما رد عليه واصفا إياه بالواهم المنغلق الذي يتعامل بالعاطفة والوهم لا بالفكر والمنطق، وقد نشبت معركة كبيرة بين الطرفين، فدخل العقلان في جدال حام، وكان المشهد مضحكا للغاية، فقد انتهت الجلسة بسب وضرب، انتهت بشكل مثير للسخرية من أجل حديث بلا جدوي، انتهت بصراع لا يفيد وفكر غير رشيد وخسارة عاطفية أكثر من كونها فكرية.

عندما عدت إلى المنزل، جلست أفكر حيال الموقف، ضحكت كثيرا، وهدأت قليلا، فكرت طويلا، وابتسمت بغتة، وقد رأيت أن قوي الجدال واقعة ظاهرة، وحدثت نفسي بأن وجود فريقين أمر معتاد منذ فجر التاريخ، وجود فرق عديدة في حقيقة الأمر، فالأمر لا يقتصر على فريقين، وإن اقتصر على فريقين، اقتصر علي أكبر فريقين، لكن هناك فرقا صغيرة ومتفرعة بشكل لا يوصف، بشكل لا يصدق.

لابد أن يكون هناك جدال في الأجواء، لابد أن يطمس الصمت، لابد أن يلفظ الهدوء، لابد أن تكون هناك ضجة وجلبة، فالبشر لا يعرفون الهدوء، لأن هناك غضبا يكمن بداخلهم، وهناك ثورة تحركهم وتشعل طرقهم، فلا يعرفون الركود ولا يدركون السكون إلا نادرا، وهو ما يعبر عن سذاجتهم ووهمهم.

إن الجدال يحرك البشر، والغريب في الأمر يكمن في قدرة التحدث في الأمور السياسية أو الرياضية بالتحديد على إثارة أذهانهم وإقحامهم في معارك لا طائل منها من أجل أناس لا يعرفونهم ولا يسمعون عنهم ولن يقدموا لهم أي شيء يفيدهم.

إنه الوهم يا سادة، ولكن على الإنسان أن يفعل شيئا ما، وإلا طمس السلوك البشري، فلابد أن يأخذ مسارا معينا من أجل المداومة والتقدم إلى الأمام، وهو ما يمثل المنطق في حقيقة الأمر.

أتذكر عندما زرت برشلونة من أجل الدراسة، أتذكر الإحراج الذي نال مني عندما ولجت صراعا مع رجل إسباني، كان الصراع متصلا بتاريخ الأندلس والكثير من النقاط الأخرى التي خصت العرب

وتقدمهم وقتها، وقد تجاهلته بعدها، فقد أظهر بربرية بعد أن أزال قناعه، أظهر البربرية التي عملوا دائما على إخفائها، رغم أن كل البشر بربر يتخفون وراء أقنعة التمدين والتحضر.

لقد أظهرت طيبة وتحضرا وقتها، أظهرت تحضرا لم يقترب هو منه، وقد فشل في العمد إلى منهج علمي يخص النقاش، وقد كان منظره مؤسفا للغاية، رغم أنني لم أتمن له مثل هذا السيناريو على الإطلاق.

-١٩-

في يوم من الأيام، كنت جالسا في حديقتي، كنت أتأمل الطبيعة من حولي، كنت أستمتع بأشعة الشمس الذهبية وقتها، كانت تلاعب وجهي، كانت تمنحه دفئا من نوع خاص، وقد مر جاري الذي يسكن على مقربة مني، وقد رحبت به، ودعوته إلى شرب الشاي، فولج الحديقة، بعد أن فتح بابها الصغير، وقد كان ذا رداء جميل، وقد سعدت لقدومه.

جلسنا نتحدث عن الكثير من الأمور، أخبرني بأن المنطقة قد تدهورت، فلم تعد كسابق عهدها، وضح لي أن الفساد قد سيطر على الحي، وأنه من الضروري أن نتكاتف كي نطهر المنطقة من الفساد والرشاوي والتكاسل والأهواء الفردية، فوضحت له أن الأمر ليس باليسير، كما أن البشر قد تحدثوا عن الفساد منذ فجر التاريخ، ولم يتمكنوا من اقتلاعه من جذوره حتى يومنا هذا، لم يقتلع الفساد قط، وكلما قطعنا رأسا من رؤوسه، ظهرت أخري، فهي حلقة لا تعرف الانتهاء ولا تعرف السكون.

إن الفساد أشبه بالهيدرا، كلما قطعنا رأسا، ظهرت أخري، كلما تخلصنا من واحدة، ظهرت واحدة جديدة، كما أن لديه العديد من الجذور، وهي جذور يصعب التخلص منها أو اقتلاعها.

لقد نظر إلى نظرة مفعمة بالإحباط واليأس، وأخبرني بأنه من الضروري المحاولة باستمرار، فحتي ولو عجز القدماء في أمر ما، فمن الممكن لنا أن ننجح فيه، فلا يعلم أحد حجم الاحتماليات

ودرجة تغير الظروف وتوافر الإمكانيات واختلاف الأزمان وما تحمله لنا من خير أو شر.

أخبرته بأن كلماتي لا تدعو إلى التثبيط، لكنني حاولت كثيرا مع الحي، أخبرتهم بأن يهتموا بالتشجير، أن يهتموا بالرصف، أن يهتموا بالمصابيح، لكنهم تغافلوا وناموا ونسوا كلماتي الرنانة التي كررتها لهم كثيرا دون توقف لفترة ليست بقصيرة، وقد تابعت كلماتي موضحا له أن الجيل الجديد لا يبالي بكل هذا، فالجيل الجديد يهتم بالموبايل والعمل والنوم والبحث عن الحبيب أو الحبيبة، لا أكثر ولا أقل، وكأنه مبرمج وكأنه تائه لا يدرك الأولويات ولا يعلم أهمية الحفاظ على المنطقة التي يسكن فيها.

فمن الضروري أن يحافظ الإنسان على المنطقة التي يسكن فيها، والأمر لا يتصل بالحي فحسب، لكنه يتصل بثقافة القاطنين أيضا، ولا أدعي المثالية بأي شكل من الأشكال، لكنني أحاول أن أصل إلى حل فيما يخص هذا الشأن.

أخبرني بأنه يري أن الحي مقصر بشكل لا يوصف، لكنه تابع كلماته موضحا أن المشاكل تكمن في الميزانيات أيضا، فكل المشاكل التي يعيشها المجتمع متصلة بالمال ونقص الموارد وسوء استخدامها إن أتيحت في حقيقة الأمر، وقد تحدث بأنه من الضروري تطبيق نظام رقابة صارم قادر علي درء الفاسدين وإبقاء المخلصين وحفظ الموارد وحسن استغلالها، كما أنه قد نبه إلي ضرورة أن يكون النظام تدريجيا احترافيا، وأن نبتعد عن فكرة الفرد المقدس الملفوظة في دول التقدم، وأن نقبل علي فكرة النظام الواحد القوي

القادر علي تحقيق الاستقرار والمساواة بين الجميع، فلا قداسة لإنسان، والقداسة لله وحده.

اتفقت معه، وقمت لإعداد بعض الشاي من أجله، وعندما عدت، وجدته قد غادر، فلم أتوقع ما فعل، لكنني سرعان ما وجدته واقفا أمامي مجددا، فقد خرج ليتأمل الطبيعة في الخارج، وها هو قد عاد ليأنس بالمزيد من الكلمات المعقدة التي كررها البشر علي مدار قرون، الكلمات التي تخص الفساد وضرورة اقتلاعه، الكلمات التي تخص المدينة الفاضلة الوهمية، الكلمات التي تحاول أن تجعل من اللاجنة جنة، الكلمات التي تحاول أن تضفي صفات لا تناسب البشر علي البشر وتحاول أن تمنح الأرض صفات لا تتصل بها وتسعي نحو تحويل الجسر إلي مستقر بسذاجة لا تفهم، الكلمات التي عرفناها وعاهدناها منذ فجر التاريخ، تلك الكلمات التي تحركنا وتجعلنا نحاول أن نبلغ جنة لا يمكن أن توجد علي الأرض بأي شكل من الأشكال، لكننا نحاول قدر المستطاع من أجل الوهم بكل تأكيد، فالجنة في العالم الآخر كما تعلمون، وهو أمر لا يمكننا أن نتجاهله، لأنه يمثل حقيقة الكون.

إن الأرض لا تمثل المركز بأي شكل من الأشكال، وما نحن إلا لحظة في عمر الكون، لكننا نحاول أن نعيش حيواتنا كما هي، نحاول أن نعيش بصورة آدمية بحتة قدر المستطاع، وهو ما يناسب أنفسنا في حقيقة الأمر ويواكب ما يجب مواكبته بشكل ما.

-٢٠-

في أمسية دافئة، كنت جالسا أشاهد التلفاز مع زوجتي التي كانت ترغب في النوم بشدة، وقد أحسست بنعاسها، فنصحتها بأن تدخل الغرفة كي تنعم ببعض النوم السعيد، وبينما كنت أشاهد التلفاز، وقعت رأسي، أحسست بأنني قد ولجت عالم الأحلام، فبينما كنت مندمجا مع فيلم (دوني براسكو) ممددا فوق الأريكة، ذهبت إلى عالم آخر، عالم مفعم بالمتاهات التي لا تحصي والأفكار التي لا تعد والخيالات التي لا توصف والأوهام التي لا تدرك والحلزونات التي تتلاعب بنا دون توقف ودون سكون بأي شكل من الأشكال.

لقد حلمت بأنني شاب صغير، نعم، كنت صغيرا، وكنت محاطا بالكثير من الأشجار، وكان هناك نهر يجري في الأفق، نهر عذب للغاية، نهر تحلق الطيور فوقه في تناغم، طيور بيضاء وكأنها من الجنة قد حلت، كانت تصدر أصواتا عذبة تشبه أصوات الكروان والبلبل، كانت جميلة، كنت أحس بأحاسيس لم أحسها من قبل، وقد سرت باتجاه الضفة محاولا التقدم إلي الأمام، لكنني سرعان ما وجدت امرأة جميلة تبتسم لي، كانت أمي، فسعدت للغاية، واقتربت في إقبال، وقد حضنتني ومنحتني الشوكولا التي كنت أحبها، وأخبرتني بأن أكل جزءا منها وأحتفظ بالباقي ليوم آخر، فأومأت برأسي، وبينما كنت أستدير، اختفت من أمامي، فبكيت سريعا، لكنني أحسست برجل يمسك بكتفي، كان أبي، وقد اقترب مني ومنحني قبلة علي جبيني، وأخبرني بأنه من الضروري أن أمضي قدما إلي الأمام، وألا أنصت إلي الفاشلين، فأخبرته بأنني قد هرمت وصرت عجوزا، ووضحت له أنني قد حققت نجاحات كبيرة في

الوسط الصحفي، وقد وصلت إلي مجد عظيم، لكنني قد نزلت إلي الأسفل مجددا، لأنها طبيعة الحياة وماهية السن بكل تأكيد.

عندما استيقظت من نومي، وجدت الفيلم قد انتهي، وقد شعرت بسلبية قد حلت على نفسي بشكل لم أفهمه، إلا أن عصير الفراولة الذي كان موجودا بداخل الثلاجة، منحني انتعاشا مكنني من درء السلبية واستجلاب أحوال الإيجابية، وقد ولجت غرفة النوم ونمت نوما عميقا وكأنني قتيل.

-٢١-

أتذكر عندما كنت في كلية الإعلام، كنت أدرس ببرود، وكنت أحصد أعلي الدرجات باستمرار، لكن الصحبة لم تكن جيدة في حقيقة الأمر إلا في بعض الأوقات، وكنت مندمجا مع بعض الأصدقاء والصديقات.

كانوا يظنونني خجولا، لكني كنت باردا في حقيقة الأمر، كنت باردا بصورة تشبه برود الرجل الإنجليزي، وكان وجهي ذا حمرة، وهو أمر لازمني على مدار السنين، إلا أن هذه الحمرة لم تكن تعبر عن شيء بالضرورة، لم تكن سوي نوع من الملازمة، لا أكثر ولا أقل.

إن ما حببني في الصحافة والإعلام والفن والسينما، الابتعاد عن الحقائق، المساحة الواسعة للتعبير، النسبية الخاصة بالكلمات، القدرة على التحدث عن الأمور دون حقائق فيزيائية أو كيميائية مرهقة، حقائق في حاجة إلى أن تحفظ، وهو ما منحني شخصيتي المرنة مع الوقت، فالفنون تمنح شخصيات أكثر مرونة من مجالات أخري، ورغم ذلك للمرونة مساحة مهما امتدت، كما هو الحال مع كل شيء، لكن المساحة كان مريحة وكانت مناسبة بكل الأشكال.

عملت في مؤسسة رياضية لفترة من الزمان، وقد كان المكان مكتظا بخريجي التربية الرياضية وقليل من الإعلاميين الزملاء، وكان كل الرياضيين حاصلين على دكتوراه، وقد أحسست بأن

الأمر سهل للغاية بالنسبة إليهم، فقد كانت أمور دراستهم سهلة وكانت أمور حصولهم على الشهادات أكثر سهولة.

إن ترجمة الأفلام الوثائقية مثلت مرحلة مهمة للغاية في تاريخي الفني والإعلامي، وقد كنت سعيدا بذلك، وكان عملي بالمؤسسة الصحفية ذا تقدم ملحوظ وقوة ملموسة أيضا.

كنت أكتب المقالات باستمرار، وكنت سعيدا بذلك، كانت السعادة تتسلل إلى كلما أنهيت عملا، فالكتابة ممتعة وتطور الأسلوب مذهل، واللغة قادرة على منح صاحبها إثارة لا توصف، فكم من كلمة أثرت وكم من جملة أبهرت وكم من عبارة خلابة أحدثت وقعا لم نجد له مثيلا، وهو ما شكل بيئة مميزة للغاية، بيئة ساعدتني على تطوير موهبتي وأعمالي وكتاباتي العديدة التي لم أنشر سوي بعضها.

هناك عدد من الروايات التي لم أنشرها، وهناك عدد من المقالات التي لم أخرجها للعلن، وهناك كلمات تحدثت بها رغم الجرأة الكامنة بين أبعادها، وهو ما جعلني مؤثرا في المجتمع وقتها، لكن الإنسان يدرك مع مرور الزمان، أن التأثير وهم، بل إن المشاهير أنفسهم يعيشون وهما كبيرا حتى ولو ظلت أسماؤهم بعد رحيلهم، فلا توجد فائدة لجوهرة قد غطت بالتراب، ولا توجد أهمية لاسم يلمع رغم عدم الاقتراب منه، لأنه قد صار قديما.

إن الشهرة وهم كبير، فالكثير من الكتاب قد تحدثوا في نقاط سياسية والكثير من الفلاسفة قد ناقشوا العديد من الأمور الخاصة بالفكر الإنساني، لكن إن أقنعتني بأن الأجيال الجديدة ستهتم

بالصراع بين كاتب وزعيم، وثورة قديمة، وأفكار مرت عليها عهود، ومنافسات بين عدد من الفلاسفة، وحروب بين أمم تلاشت، بينما تعيش هذه العصور السريعة، فسأكون ممتنا للغاية، لكنك لن تقنعي بذلك، لن تتمكن من فعلها، لأن الأمور تقل أهميتها حتى ولو كانت معروفة، لأنها لم تعد تناسب الزمان ولم تعد تتماشي مع ملامح العصر.

قليل من الناس يقرأ للحاصلين على نوبل في الآداب في هذه الأيام، قليل من الناس يبالي بنتشه وشوبنهاور، قليل من الناس يهتم بالأدب والعلوم والفنون، فأكثر الشعوب يأكلون البرجر ويسعون لجني المال وينامون، والأمر مطبق على الجميع، ولو كانت هناك أمم متقدمة عن غيرها، فإن هذا نابع من وجود فرق قليلة تدعم هذه الأمم، أما معظم الأمة، فإنه في نوم عميق يترنح بين الأوهام ويبحث عن المال ويعتقد أن السعادة تكمن في المادة، رغم أن الجانب الروحاني هو الأساس، الجانب الروحاني هو السعادة، الجانب الروحاني هو الملاذ.

إن النظام الذي تعيشه الأجيال الجديدة، لا يمثل سوي الوهم، يبحثون عن المادة، عن المال، عن تأمل الأجساد العارية، عن السيارات العديدة، عن المنازل الكثيرة، رغم أن لكل إنسان نصيبه من الكعكة، فلن تحصل سوي على قطعة، وحتى ولو حصلت على الكعكة كاملة، فإنك لن تتمكن من التهامها كلها، فهناك أمران فيما يخص النعمة، النعمة في حد ذاتها، والقدرة على التعامل معها.

وكم من مرة جلبت وجبة عائلية في صغرك، ولم تأكل سوي قطعتين، وكم من مرة أحضرت كعكة كبيرة، ولم تأكل سوي

قطعة، وكم من مرة اشتريت بيتزا ضخمة وتركت الباقي في الثلاجة حتى فسد، إنه الوهم يا سادة، إنه الخيال الذي زاد عن اللزوم فأحدث شرخا في التجربة، ولا تعني كلماتي التقشف فيما يخص الواقع والخيال، لكنها تعني أن نمنح الأمور النظرة التي تستحقها، وأن نمنح كل شيء وضعه، ولا يغرنك كثرة الأمور وكثرة المعروض، فهناك النعمة، وهناك القدرة على التعامل مع النعمة.

وإن تغافلت عن الجانب الثاني، فقد أهملت جانبا مهما للغاية، فتصبح كمن جلب شيئا ولم يجد هدفا له، وكمن سلك طريقا ولم يصل إلى شيء، ومن أحضر طعاما أهدر معظمه، كما أنه من المعروف أن الهدر أسرع وسيلة في هذه الدنيا، فالكثير من الأمور تهدر، الكثير من الطاقات تهدر، والكثير من العناصر تصبح دون نفع يذكر، ولهذا من الضروري للمرء أن يدرك أن الشيب سيخبره بالكثير، سيخبره بما أخبره به الأهالي لكنه قد تجاهل وقتها، سيخبره بالويلات التي تجاهلها في صغره، سيخبره بالبوادر التي رغب دائما في أن ينأي بنفسه عنها.

إن تأمل الشقين مهم، تأمل الحصول على النعمة، وتأمل القدرة على التعامل معها، وكم من رجل عبر عن أحلام لم يتمكن من بلوغها، وكم من امرأة رغبت في أشياء لم تناسبها قط، فالأمور في حاجة إلى مجهود، ولا تعني كلماتي الركود، لكنها تعني التأني والحصول على المعقول، لعلنا لا نصل إلى أمور تكشف عن أنيابها بعد أن زينتها لنا عقولنا، وهو ما يمثل فجوة الكينونة ومهبط الإنسان.

إن الخيال مهم للغاية، لكن الخيال الذي تتخفي وراءه الشهوات والأطماع، خيال فاسد، خيال سيرهق صاحبه مع الوقت، أما الخيال الذي يسوقه الطموح ويلاعبه الأمل، فإنه خيال مقبول، ولكن من الضروري أن تكون هناك حدود، وإلا خرجت الأمور عن السيطرة، وحينها تتسلل علامات الحزن إلى التجربة، ويصبح الإنسان محملا بما أرهق به خياله، بما أرهق به عقله، بما أرهق به نفسه وغيره.

وكم من آية أوقفت الخيال الزائد وحددت مساحة للتحرك، وكم من رجل صارع نفسه مترنحا بين الزهد والإقبال المبالغ فيه، وكم من قناع قد أزيل بعد أن كشف صاحبه عن نفسه مجبرا، فبعد أن ترهق الأقنعة، تسقط وحدها، وبعد أن تكثر المتاهات، يظهر المجرم بينما تسلط عليه أضواء الحقيقة.

ولا يغرنك من تحدث كثيرا عن المثالية والخير والآمال والإيثار، ولا يغرنك من يتحدثون عبر السوشال ميديا، فكل هذا لا يمثل سوي عالم افتراضي لا يمت إلى الواقع بصلة، والكل يريد أن يسيطر على الترند بصورة علمية أو دينية أو فنية أو إعلامية بأي شكل من الأشكال، رغم أن الكلمات والمعلومات قد صارت متاحة على الإنترنت، وهو أمر يخص كل المجالات، لكن الترند هدف، والمال هوس.

ولا تعني كلماتي أن هذه الأمور ملفوظة، لكنها ممتازة في حقيقة الأمر، ممتازة إذا كانت صاحبة رسالة واضحة ومفيدة، إذا كانت ممتعة وشيقة وجذابة ومقدمة للمزيد من المعرفة، أما المال كهدف وحيد، فإنه أمر لا يعرف طريقا إلى الجانب المهيب، ولا يعد وسيلة سليمة لبناء كينونة ذات إشراق.

مثلت هذه الكلمات بعضا من الكلمات التي أقحمتها في كتيب المقالات الذي أصدرته في عام ٢٠٠٨، كنت أتأمله بينما كنت أشرب بعض الشاي في الصالة، وقد كان الحبور يلاعبني، كان يلاعبني ويشملني ويسيطر على ذهني، وهو ما أدي إلى سيطرة الحماسة على النفس وهيمنة الغرور على مكامن السرور وملاعبة الفتور لأناس آخرين لا أعرف لهم طريقا أو مسلكا.

-٢٢-

في أمسية من الأمسيات، عندما كنت شابا، سلكت طريقا طويلا لمقابلة حبيبة قديمة، كان الطريق لا يعرف نهاية، كانت المسافة طويلة، كانت طويلة للغاية، لم أتحمل عناء السفر، كنت أهرع بالسيارة، لكن النهاية كانت صعبة البلوغ، كان المرغوب بعيدا، كان بعيدا للغاية، أحسست بأنني كنت تائها، أحسست بمتاهات لم يكن لها طائل، شعرت بأن الطريق كان طويلا رغم أنه كان من الممكن أن يكون قصيرا للغاية، كان من الممكن أن يكون قصيرا للغاية وأكثر أمانا.

كنت أحب هذه الفتاة، ولم تكن العائلة علي علم بذلك، لكن أمري قد كشف حينما ظهر انعكاسها في نظارتي عندما التقطت لي صورة في يوم من الأيام، وكان الأمر غريبا بالنسبة للعائلة، لأنني كنت منشغلا بالكثير من الأمور وقتها، ولم يكن الوقت مناسبا وفقا لما رأوه حينها.

عندما وصلت إلى النهاية، وجدتها في منزلها وحيدة، نزلت إلى الشارع، قفزت إلى السيارة، سلكنا الطريق حتى برجر كينج، تناولنا بعض الطعام بينما كانت الأمطار تهطل في الخارج، لقد هطلت بغتة، فالأمر أشبه بالجريان بعد الانقطاع، بالخير بعد الانتظار، بالسكينة بعد الاضطراب، هل تعلم ما أتحدث عنه عزيزي القارئ؟

إنني علي علم بأن عقلك يجعلك ترغب في الكثير، ولكن هل تدرك أنه لن يتوقف أبدا، ورغم ذلك من الضروري بلوغ بعض النقاط الرئيسية كي تطارد النقاط الأخرى وعقلك أقل وطأة، لعله لا يجن.

لقد أخبرتني ليلتها بأن صديقتها كانت على وشك الزواج، أخبرتني بضرورة الإسراع، فأخبرتها بأن الأمر قد اقترب وبأن القرار قد صار موضع نقاش، لكن المطر قد توقف مجددا، وقد خربت الليلة لسبب لم يكن في الحسبان، جدال أحمق، جدال أدي إلى الوقوف عند الجرف والرغبة في القفز، وقد قفز كل منا، وكانت النهاية كارثية.

لم يكتمل الأمر، لم يكتمل بأي شكل من الأشكال، وقد كانت فتاة جميلة من النوع الشرس، لكنني قد نسيتها تماما، كما أنها قد فعلت أيضا، وقد تزوجت من رجل ديكتاتوري علمها التعامل مع العقليات المنغلقة، وهو ما عرفته لاحقا، أجبرها على التعامل مع العقليات المنغلقة في حقيقة الأمر!

-٢٣-

في الصباح الباكر، استيقظت من نومي، جلست مع زوجتي الجميلة الذكية المثيرة، تشاركنا الفطار، شربنا القهوة، تناولنا بعض الفطير مع العسل والجبن، وأنهينا الجلسة بالتحدث عن حال الأجيال الجديدة.

أخبرتني بأن سرعة الجيل الجديد لا تناسب الروح، كما أن التحدث عن سرعة الجيل أكثر أهمية من التحدث عن سرعة العصر، ففي الكثير من الأحيان، تكون سرعة التصرف هي الأساس، والإنسان يخدع حينها ويعتقد أن السرعة متصلة بالزمان، رغم أنها متصلة بطريقة التعامل مع مجريات الزمان، وإذا سيطرت المواكبة على السرعتين، صار الأمر جنونيا، وهو ما يعد أمرا ملحوظا في الآونة الأخيرة في حقيقة الأمر.

ربما تكمن الحقيقة في كلماتها، لكننا لا نعلم مصدرها، كما أنه من الصعب أن نتوغل إلى غابات الفكر المتصلة بالزمان، لأن الأمر ليس بيسير، وإذا تأملنا حيوات الشباب المعاصرين، لوجدنا أنفسنا أمام مجموعة من المهووسين، وقد وصل الأمر إلى الهوس بالمؤخرات، المؤخرات التي تنزل الخراء، وهو ما يعد أمرا مضحكا، فالهوس له حدود، ولو تجاوز الإنسان هذه الحدود، أصبح الأمر كارثيا، لأن عصبية الإنسان لا تتحمل مثل هذه العبثية في حقيقة الأمر.

إن المدارك البشرية ليست مفهومة جيدا، إن التطرف مذموم بقوة، فالتطرف فيما يخص الإرضاء ونقصه، قد يجعل الإنسان كالمسعور

وقد ينال منه الفتور، ولهذا من الضروري التحلي بالوسطية فيما يخص كل شيء، العمل، الراحة، الضحك، البكاء، الجري، الوقوف، إلخ.

مددت رجلي باتجاه كرسي صغير، ابتسمت ابتسامة بلهاء، أخبرتها بأن التنظير عمل الكثيرين، ولكن الأفعال أمر مختلف، مختلف كليا، أمر لا يقدم عليه سوي القليل في حقيقة الأمر، وربما في مرة من المرات، لا يقدمون عليه، لأنه لا يوجد ضمانات حيال قدرة الفرد على التصرف بنفس الطريقة في كل مرة ينخرط فيها في موقف ما، ويطلب منه أن يتصرف لعله يعبر عن سلوكه.

أخبرتها بأن التحدث عن الطريقة المثلي أو البلد الأفضل أو الأخلاق أو الحياة الأفضل، كلها محاولات من محاولات الإنسان التي تسعي نحو تعويض وجوده الذي فقده حينما كان في الجنة، محاولات تعويضية كلها، محاولات للتعويض عن التمرد الذي أقدم على فعله حينما كان في عالم نسي ملامحه بشكل تام.

وضحت لها أنه لا توجد جنة علي الأرض، بل إن أميركا التي يعتقد الكثيرون أنها الأفضل، لا تمثل سوي حلقة من الرأسمالية الشرسة، ستعمل حتي تموت، سيأخذون طاقتك بأكملها، وسيبيعون لك الماء والهواء وكل ما هو طبيعي، سيجعلونك تشترك بالجيم رغم إمكانية المشي في الأماكن الطبيعية، سيبيعون لك منتجات السوبرماركت صاحبة السكريات والأملاح العالية والعناصر المفيدة القليلة وسيقدمون لك حبوب الفيتامينات وغيرها من الإمدادات بأسعار عالية، سيبيعون كل ما يفترض أنه طبيعي، وسيصدرون هذه الثقافة إلي أنحاء العالم، حتي العالم الثالث، العالم

الثالث العاجز عن تحمل مثل هذه الدائرة، وقد غضب أصحاب الدائرة حيال نتائجها، فما بالك بمن لا يفقهون عنها شيئا وانخرطوا لتوهم فيها رغم ضعف إمكانياتهم؟

أخبرتني بأنني أضخم الأمور كعادتي، فأخبرتها بأنني لا أفعل، وقد وضحت لها بأن مثل هذه الدائرة قادرة على التأثير على سيكولوجية إنسان، والوصول به إلى الكثير من التصرفات السيئة والأفكار المشؤومة والسلوكيات غير المرحب بها حيال المجتمع وتجاهه.

ستفقد الكثير من الأجيال الإحساس بالوطنية، سيهربون من العالم الثالث إلي العالم الأول، وسيدركون مع الوقت أن هروبهم كان إلي صراع أقل وطأة فحسب، سيدركون أنهم لم يهربوا إلي الجنة، لكنهم قد هربوا إلي ساحة قتال أقل وطأة، لكنها أسرع وأكثر إرهاقا، بمعني أن المجهود سيحول إلي نتيجة، لكنه سيكون كبيرا للغاية، وستزداد مع الوقت الرغبة في المزيد من النتائج، ولو أن هذه هي سنة الحياة في نظر الكثيرين، فتبا لهم، فالوسطية مهمة للغاية، فعندما يرهق الإنسان ليحصد، عليه أن يقضي وقتا في الاستمتاع بحصاده أيضا، لكن الكثيرين يقضون وقتهم بأكمله في الحصد لا أكثر ولا أقل، في الشعور بأن هناك حصادا، دون استمتاع حقيقي بالمحصود.

لقد عرفت رجلا كان يجمع المال دون أن ينفق، دون أن يتصدق، دون أن يستمتع، كان يشعر بالأمان متلذذا بالعد، وكأن ماله سيخلده، رغم أنه سيفارقه في حقيقة الأمر، كما يفارق كل شيء الإنسان، فالإنسان أيام، وبمجرد أن ينهي شأنه، تلم أموره وتترك الساحة لغيره، وهكذا!

أخبرتني بأن الإسراف مذموم أيضا، فاتفقت معها، وعبرت لها عن قصدي بشكل أكبر، بشكل أعمق، فأصبت وأدركت هي ما قصدت، لكنها سرعان ما أخبرتني بأن لكل إنسان طريقة وبأن القوانين غائبة حيال الكثير من الأمور، رغم كونها حاضرة فيما يخص العديد من الأمور الأخرى.

-٢٤-

جلست أحدثها عن الكثير من الأمور التي شهدتها في صغري، وقد حلت علينا بنت الجيران بفستانها الأسود القصير وفخذيها المكشوفتين، وقد جلست تشاركنا جلستنا، جلستنا التي دعمناها بالدالجونا.

أخبرتهما بأنني قد حضرت محاضرة في الجامعة الأمريكية في صغري، وقد كان موضوعها يخص النقاش والفكر، وقد أخبرت الحاضرين بأن اختلاف فكر أحدهم عنا لا يعني أننا على صواب وأنه على خطأ، فمن الضروري أن نفتح شباك التواصل، وهو شباك يفتح حينما نري أنه من الممكن للجميع أن يكون على خطأ ونحن جزء من هذا، وهذا لا يعني التقليل من شأن الذات أو من شأن الحماسة، لكن من الضروري أن يكون الأمر مزيجا بين احترام الذات وحماستها من جهة ومناقشة العقول بشكل حضاري من جهة أخري.

إن كتاباتي القديمة لم تقدم على احتقار الذات بأي شكل من الأشكال، لكنها أقدمت على احتقار الغرور، كما أنها قد اهتمت بأن هناك حقيقة واحدة، وأن هناك جدالا حول الحقيقة لأن هذه الطريقة تمثل سنة الوجود كي يحدث الحراك، لأن الحراك بمثابة الأساس، وهو حراك منظم في نهاية المطاف، حتى ولو أظهرته نظرتنا القاصرة على أنه فوضوي، وهو ما يثير مناقشة نظرية الأبعاد، الأبعاد المختلفة الخاصة بالوعي، وهو ما يعد أمرا محوريا وجديرا بالذكر.

حركت الفتاة فخذيها وأمسكت بورقة استخدمتها كمروحة كي تقلل من وطأة الحرارة التي تضايقها، وأظهرت لامبالاة دفعتني إلى التوقف فجأة، حيث سألتها عن حياتها الزوجية.

أخبرتني بأن الأمور على ما يرام، لكنها تشعر بأن الحياة أشبه بالروبوت، تشعر بأننا نعيش بداخل نظام معقد وحلقة ثابتة، حلقة شكلتها عقولنا القاصرة التي حاولت إتلاف الطبيعة، رغم أن هناك نظاما يسيرا يمكنه أن يسهل حيواتنا، الفطرة السوية.

سألتها حول فستانها، أخبرتها بأن هذا الفستان القصير ذا اللون الأسود لا يتماشى مع الفطرة، وبأنه من الضروري أن تخبئ جسدها، فضحكت كثيرا، وأخبرتني بأنها عادة تكتسبها معظم الفتيات منذ الصغر، وقد وضحت لي بأنها تحاول أن تسير على النهج الصحيح قدر الإمكان وبأنها ترغب في ذلك.

لكنها سرعان ما تحدثت ببعض الكلمات التي نمت عن امتعاضها، امتعاضها الذي كبتته كي لا تضايقني احتراما لسني، وقد وضحت لها بأنني لست بالملاك، لكننا نحاول أن نحسن جميعا من أنفسنا، وقد حدثتها زوجتي بأنها قد ارتدت الفساتين القصيرة على طول الطريق، لكنها قد صارت ملتزمة عندما بلغت الخمسين من العمر.

أخبرتني الفتاة بأنه من الضروري أن أغض البصر، فقد اقترب الموعد على ما يبدو، فنظرت إليها نظرة نمت عن شعوري بالضيق، فقامت وحضنتني وأخبرتني بألا أحزن، فقد كانت تمازحني لا أكثر ولا أقل.

لقد حلت ابنتي على الساحة، وجلست تشاركنا الجلسة الدافئة، لقد أحضرت بعضا من الموز والتفاح والحلوى، وقد أوصلني طبق الكريم بروليه بالبطاطا والسكر المكرمل إلى السماء، فنسيت أنهن هناك وأحسست بالنشوة العارمة، النشوة العارمة، النشوة العارمة.

عليك بالنضج أيها الرجل العجوز، عليك أن تنضج أيها العجوز. اذهبوا أيها اللعناء، اذهبوا بعيدا عني، فطبق الحلوى يجعلني أغني.

-٢٥-

في يوم من الأيام، لم يكن هناك أحد بالمنزل، فقد خرجت زوجتي من أجل شراء بعض الطعام مع ابنتي التي كانت تسكن على مقربة، وقد كنت وحيدا أتأمل الورود في البستان، كنت أقرأ كتابا لفرويد، وكنت أتنقل بين كتابات بعض المؤلفين المغمورين، وقد كان الشاي رفيقا وقتها.

جاءتني أفكار كثيرة حينها، تذكرت العديد من الأمور، تذكرت حينما كنت في مرحلة الكفاح والصعود، تذكرت النشوة التي كانت تسبق الانخراط في الأمور، النشوة التي كانت تمنح الذهن إثارة تتفوق علي الفعل نفسه عندما يتم، الرحلة لا الوصول، الترقب لا البلوغ، تذكرت العديد من الأمور التي اتصلت بنشاطي الصحفي الممتد علي مدار عقود، وقد استحضر ذهني صورة مديري اللعين، ذلك المدير الغريب الذي كان يرأس الصحيفة، رغم انخفاض مستواه الفكري في حقيقة الأمر، إنها مشكلة كبيرة في حقيقة الأمر حينما يكون رئيسك أقل فكرا، ولكن هل تثق في عقليتك التي تقيم الناس بهذه الصورة؟

إن الوثوق التام في العقلية قد يجعل منك وحشا، ولهذا من الضروري التدبر أيضا، كما أنك ستدرك في النهاية أنه ليس من الضروري أن تفصل بين الأمور، لأن الفصل ليس بوظيفتك، ولأنك لا تمثل سوي أداة.

كنت أتنقل بين الأفكار، إلا أن بنت الجيران قد حلت بغتة، وقد جلست كعادتها، جلست تحدثني عن مغامراتها في فترة المراهقة،

وقد أخبرتني عن أسرار كان من الضروري ألا تفصح عنها، فقد كانت فتاة شرسة في صغرها، كانت نشطة، كانت تبحث باستمرار، كان بالها لا يهدأ، وهو ما أقحمها في متاهات لا طائل منها.

أخبرتها بأن الفضول خطير، الفضول مدمر في الكثير من الأحيان، الفضول مدمر، فمن الضروري أن يدرك الأمر العوامل الداخلية والخارجية التي تهيمن عليه، ومن المهم أن يمسك بزمام العواطف.

وضحت لها أن هناك رجلا قد ألف كتابين في تتابع، وقد حققا شهرة واسعة: الأول بعنوان (ماذا استفادت الإناث من الذكور؟)، والثاني بعنوان (ماذا استفاد الذكور من الإناث؟). وكانت الإجابة غريبة عجيبة مذهلة، فقد كانت صفحات الكتابين بيضاء تماما، كانت بيضاء بشكل كلي.

إنه لأمر عجيب أن تكون هذه هي الإجابة بعد كل هذا البحث والسعي، إنه لأمر غريب أن يكون الأمر هكذا، ولكن هناك سخرية فيما يخص الأمر بكل تأكيد، فالرجل يحتاج امرأته والمرأة تحتاج رجلها، لكن ليس بالشكل الهوسى الذي يصاحب فترة المراهقة أو فترة التعرف الأولي، فهوس البدايات غريب، إنه هوس كيميائي في حاجة إلى تشريح ودراسة وفهم ووعي وإدراك وملاحظة ومراقبة وتأمل، وحياة دون تأمل لا تستحق أن تعاش في حقيقة الأمر.

ضحكت الفتاة دون توقف، وقد أكدت على ألا أخبر أي إنسان مهما كانت ماهيته بما أخبرتني، فوعدتها، لكنني أخبرت زوجتي بكل

شيء في المساء، وقد وصفتها بالشقية ذات الوجه الملائكي، وقد كان من الضروري ألا أخبرها في حقيقة الأمر.

لقد قضت ساعتين قبل النوم في التحدث عن الأمر، تعجبت من ثعلبية هذه الفتاة، تعجبت من قدرتها على التلون بهذه الصورة، لكن التعجب الأكبر كان من نصيب اختيارها لي كي تخبرني بمثل هذه الأمور التي لا تليق، وهو ما أدي إلى الفضول الذي لازمنا ليلا دون أن يغادرنا، لكنه غادرنا سريعا بعد أن نمنا وبعد أن قفزنا إلي بحر النوم، ذلك البحر الذي يحب الجميع أن يقفزوا إليه.

-٢٦-

في يوم من الأيام، جلست وحدي بالمنزل، كنت أتأمل الجدران، كنت أتأمل كل ما يحوطني، كنت أتأمل كل شيء بكل ما تحمله الكلمات من معني، وقد أحسست بأن عجزي في حاجة إلى أن يهدأ، فخرجت إلى الحديقة، وقد أحضرت كرسيا وجلست أتأمل الطبيعة، الطبيعة الخلابة التي تساعدنا على المضي إلى الأمام، حيث أنني قد رأيت دائما أنها كانت قادرة على امتصاص غضبي وتقليل وطأة مسيرتي والتلطيف من مروري.

عندما تطلب المرور اللطيف، فإنك تطلب أفضل ما يمكن أن يطلب، تطلب السهولة في العبور، وهو ما يعد نعمة كبيرة في حقيقة الأمر، وعندما كنت صغيرا، كنت أطلب سهولة المرور خاصة عندما كانت تنشب كوارث في العمل أو تتوقف بعض الأعمال أو تصعب بعض العلاقات، وقد كان الأمر ييسر مع الوقت بفضل الله.

أتذكر عندما زرت الساحل مع بعض الأصدقاء، كان الجو حارا، كانت الفتيات يرتدين أردية السباحة، كان الشبان يلعبون التنس، كانت الأشجار تحوط المنطقة، كانت المطاعم مزدحمة، وكانت العقول صافية، كنا صغيرين، كنا في فترة المراهقة، أو في أواخرها، لا أتذكر جيدا في الحقيقة، وقد لفتت انتباهي وقتها فتاة ذات عينين واسعتين، وقد خبطتني بكتفها بينما كانت تمر، إلا إنني لم أمنحها بالا، فقد كان الأمر لا يذكر وكان لا يمثل شيئا مهما، وقد كنت وقتها غير مهتم بالجنس الأنثوي، وكنت أتذكر دائما أن الإنسان يتحرك حاملا الخراء بداخله، وهي فكرة أقحمها

صديق لعين في رأسي، فكرة حمقاء لم أتمكن من التخلص منها إلا بعد وقت طويل.

لقد استمتعنا بالبيتزا في اليوم الأول وشاهدنا فيلما في السينما بعد أن أنهينا جولتنا على الشاطئ، وقد قضيت معظم الوقت في اليوم الثاني بمنطقة الفود كورت، أما اليوم الثالث، فقد مثل اللعب والضحك والجري مع الأصدقاء اللعناء، وبالنسبة إلى الأيام الأخرى، فإنني لا أتذكرها مرتبة، لكنني أتذكر التنقل بين أجزاء الشريط المكرر، وكثيرا ما مثلت الأيام الأولي للرحلات التذكار الذي لا ينسي، لأن البصمة الأولي والمشهد الأول بمثابة الشرارة كما تعلمون.

يمكنني أن أقول المشهد الأول ويمكنني أن أقول المشهد الأولي، وهكذا هو الحال مع الكثير من الأمور والأحاسيس، الصياغة، الصياغة مع عيش نفس الأمور، فقد رأيت امرأة غنية تشتري الشوكولا في محل فخم وكانت سعيدة للغاية، وقد جلبت قطعا عديدة للعائلة، وقد رأيت أيضا امرأة بسيطة في المترو تشتري الشوكولا البسيطة، وقد اشترت أكثر من واحدة لتعطي الأطفال، وكانت سعيدة أيضا، فصياغة المشهد قد تكون مختلفة، لكن الإحساس قد يكون متشابها، وهو ما أدركته مع الوقت، ولكن لا تسير الأمور بهذه الصورة على الدوام.

لكن الفرحة الأولي مشتركة، فرحة الإحساس الأولي، وعندما كنت في إجازتي، مثل اليوم الأول سعادة كبيرة، وكان المنتجع فخما، وكانت الصورة الأولية بمثابة المحفز والتذكار، إلا أن البقية من الشريط كانت مكررة، وهو الحال مع كل الأمور، ولو كنت

ألخبط فيما يخص التنقل بين الموضوعات، فعليكم أن تدركوا أن العقل قد نال منه الشتات، وهو ما يواكب السن الكبيرة التي لا مهرب منها، بكل تأكيد.

-٢٧-

عندما كنت هناك، عندما كنت بالساحل، جاءني حلم غريب في ليلة من الليالي، و لا أتذكر جيدا ما آتاني، لكنني قادر علي تذكر بعض الملامح التي شكلت الهيئة ومثلت المنبع و لاعبت الأحاسيس، فالأحاسيس تلاعب عندما ننام في بعض الأحيان، وهو ما يعد إرهاصا للكثير من الأمور، والتي منها كوننا أدوات في حقيقة الأمر.

لقد رأيت نفسي واقفا بساحة واسعة، كانت الأرض ترقص، وكانت الجبال تترنح، وكانت هناك قري تثور، كان الثوران يشبه ثوران بركان نال من الأرض في لمح البصر، في طرفة العين، ثوران شكل الأرض، شكل ملامحها منذ ملايين السنين، وقد جاءني رجل قصير مصحوبا برجلين طويلين، كان الرجلان عملاقين بشكل مخيف، وكان القصير لافتا للنظر، وقد أخبرني بأنه قد جلب لي فتاة نورانية ذات قدسية وبهاء، فتعجبت من أمره، وأخبرته بأن القدسية لا تدرك بيننا، فلم يبال، وقد تدفقت الأحلام وطفقت، فلم أفهم البقية، لكن القصة انتهت بوقوفي بداخل مسجد كبير، بينما كان هناك رجل عجوز علي مقربة مني، وقد جاء ناحيتي ولمس رأسي، وقال (بارك الله فيك).

كنت أحكي هذا الحلم كثيرا، وقد أشعرني بروحانية غريبة، وكنت أكرره بصورة ملحة، حتي ضحك الأصدقاء، لكنني تجاهلت ما نجم، وقد حللت ما نتج، وعندما نتأمل مثل هذه الأمور، ندرك أن بكل منا جانبا روحانيا، وتطويره في حاجة إلي عمل عظيم، وعندما يبلغ الركن المطلوب، نشعر بأمور عظيمة، أمور تحل علينا في الأحلام وربما في الواقع أيضا، وقد منحني الواقع أمورا جميلة

أحسستني بمعية الإله، وهو ما يعد أمرا طيبا وعظيما، وفي الوقت عينه لا يمكنني أن أتجاهل حقيقة أن لكل إنسان مؤمن الجانب عينه، لكن بدرجات مختلفة ومتنوعة بصورة لا توصف.

الإحساس بالجانب الروحاني، قد يتطور بشكل سليم وقد يأخذ سياقا غير سليم، ومن السياقات غير السليمة، الاعتقاد بالفردية العميقة، الاعتقاد بأن الإله معك وحدك دون الآخرين فتشعر بتفوق منبوذ، الاعتقاد بأنك نبي أو ملاك وربما إله في بعض الحالات النفسية التي تحتاج دراسة، أما الإحساس الصحيح، فإنه يتمثل في الإحساس بالدفء عندما يذكر الإله، وطلب الرحمة للنفس وللجميع، والإيمان بأن العمل الفردي جزء من العمل الجماعي، فإنكار الآخرين والاعتقاد بالفردية والمركزية مشكلة كبري، وقد تؤدي إلي صدمات كبيرة عند البعض مع الوقت.

بعد أن عدنا، اشتقت إلى أجواء الرحلة، واشتقت إلى الأفكار الكثيرة التي لاعبتني في كل مرة كنت أجلس فيها أمام الشاطئ، وفي كل مرة كنت أري أحد الأصدقاء يضرب السبيدو ويقفز إلى الماء، ها أنا أضحك دون توقف، وها هي الذكريات تلاعبني لتنعشني، ولكن الانتعاش مطلوب باستمرار، وهل نقدر على ذلك؟ هل نقدر على ذلك؟ لا أعلم في حقيقة الأمر.

إن الذكريات تلاعبنا بشكل غريب، والكلمات تحضر في الذهن بصورة عشوائية في الكثير من الأحيان، وعندما نوقع الألحان على القيثارة، نشعر بالقشعريرة المرجوة، ولكن القشعريرة تحتاج إلى انقطاعات كي نحسها، كي نحس حلاوتها، كي نحس البهاء، وقد نصحو بغتة على هرج عال في يوم من الأيام، لنكتشف أن بصمة

الهدوء التي طبعت، لم تكن سوي وهم وخيال، لندرك أننا كنا نتنقل بين طيات الفنتازيا دون أن نعي الحقيقة ودون أن نهرب من جلسات الضحك والعبث التي كنا لا نغادرها كالسكارى.

-٢٨-

حلت الابنة علينا في صباح يوم حار، جلست معي ومع أمها، وكانت البهجة تتوج المكان، وقد حان موعد الطعام، فطلبنا دجاجا حارا من ناندوز، وقد كانت الخضرة تتوج الوجبة بشكل فعال، الطماطم، الخيار، الجرجير، البصل، الزيتون، الهلابينيو، كلها علامات تمثل الطبيعة، الطبيعة الجميلة التي وهبنا الله إياها كي تكون مصدر كل خير، ومنها اشتق كل شيء، وعليها بنيت الكثير من الصناعات، وتقدمت العديد من الأمم.

يمكنك أن تتأمل منتجات الخيار والزيتون والخيار المسكر والباربكيو بأنواعه وألوانه، وغيرها من المنتجات التي تمثل معظم السوبرماركت، وكلها تباع بأسعار عالية، لكن إذا عدت إلي المصدر، وجدتها أمامك تضحك لك ببساطة شديدة، دون تعقيدات نالت منها كي تصبح أعلي سعرا، وهو نهج اتبعه الغرب وفرضه علي العالم بأسره، عملية التعبئة والتعليب في حد ذاتها، قد تمثل نصف سعر المنتج في حالات كثيرة، ومن الممكن أن تجد برطمان خيار البرجر المسكر بسعر عال، رغم أنه بسيط في نهاية المطاف، وهو الحال مع كل شيء في عالم الرأسمالية الذي نعيشه، ولكن لا مناص من مواكبة التيار كما تعلمون.

فلو توقف التيار، فرغ الماركت، وهو ما يمثل أمرا مفهوما ومدركا مع الوقت، وقد كنت مهووسا في صغري بشراء المعلبات والصوصات المستوردة، لدرجة أنني قد جلبتها من كل أنحاء العالم، وتعرفت إلى معظم الأنواع، لكنها في نهاية المطاف لم تمثل سوي مصدر واحد، الباربكيو بالعسل، الباربكيو بالقيقب، الباربكيو بالسكر البني،

المسطردة بالعسل، المسطردة الحارة، التاباسكو والكايين، وهكذا، كلها طماطم وشطة وخردل في نهاية المطاف، لكن اللعب بالخامات والإضافات والنكهات، يمثل المحرك الرئيسي للسوق.

كنت أتحدث مع ابنتي عن هذا الشأن بينما كنا نتنقل بين الخيرات، وقد رأت الزوجة أنني قد صرت ثرثارا مؤخرا، وكأنني كنت أعمد إلى الكلمات بهدف إخراج الطاقات، فأخبرتها بأنها طبيعة الإنسان الذي يمرر الوقت معتمدا على الكلمات، لكنه عندما يكون منشغلا، ينسي الكلمات ويخرج الطاقات بأشكال مختلفة، ورغم ذلك، هناك الكثير من الأعمال التي تعتمد على الكلمات والتنقل بين الأحاديث المختلفة وإرضاء الزبائن بشتى الطرق.

فالعصر الحديث عصر ثرثار، ستجد الشبان يحاولون التحدث إلي كل الفتيات معتقدين أن هناك اختلافات جوهرية بين الحيوات، وستجد الفضول يأخذ الفتيات إلي قصص لا طائل منها، وستجد الكلمات تلقي في طريقك في كل مكان، علي الإنترنت، في الصحف، في الأفلام، في الكتب، وهكذا، ولكن لو توقفت مع نفسك لبرهة، لأدركت أن الكلمات تمثل المصور الرسمي للوعي الجمعي والفردي علي السواء، بمعني أن الوعي الفردي يحفز مساره ويحاول مواكبة الوعي الجمعي والتعامل معه، وهو ما يمثل أمرا منطقيا وبسيطا، ولكن الفكرة في طريقة التحفيز وعملية المواكبة.

إن الوعي يظهر اضطرابا عند الشبان حينما يدخلون حلقات الاجتماعية والبناء، وهو اضطراب يشبه اضطراب العجزة حينما يغادرون الحلقات في الكبر، بمعني أن اضطراب الدخول يشبه

اضطراب الخروج، حتى ولو كانت الهيئة والظروف مختلفة، وهو ما يجعلني أتأمل الإصرار عند الإنسان، الإصرار على المواكبة بكل الأشكال.

ضحكت الزوجة كثيرا، وقد صعدت ضحكات الابنة إلى السماء، لقد وضحت الأولي أن أفكاري كثيرة متحورة غريبة متلاعبة مثيرة، لكنني في الوقت عينه مضطرب دون ثبات، فلابد من اختيار الطريق للتحدث قبل التفوه بالكلمات، ولو أنني كنت راجحا حقا، لتوقفت مع نقطة واحدة دون التوقف مع نقاط عديدة في الوقت عينه، من أجل الوصول إلي مفتاح.

احمر وجهي، ضحكت كثيرا دون هوادة، وأخبرتها بأن التحدث لا يثمر في معظم الأحيان، ووضحت أن الإنسان يتحدث ليمرر الأوقات، وتحدثت بأن الإنسان عبارة عن أفكار وبأن طريقة تركيزه مع هذه الأفكار أكثر بلورة، بمعني أن الأمر لا يقتصر على العقلية المشكلة، ولكن يتصل أيضا بتوجه الفرد تجاه فكره ودرجة تركيزه معه وعدد المرات التي يستحضر فيها أفكاره.

ضحكت دون توقف وقد غادرت مكانها، وغادرت ابنتي بعد أن ودعتني، وقبل أن ألج المنزل كي ألحق بالزوجة، وجدت فتاة ذات ثوب قصير تقترب مني، وقد كان ثوبها الأزرق يشعل الأجواء، وكان الشيب يسخر مني ويخبرني عن عجزي في إصرار.

وكانت الأشجار والنباتات في كل مكان، إلا أن المرأة مع الطبيعة، بمثابة، اكتمال الأجواء، اكتمال الأجواء، أجواء الأحلام ومسايرة الواقع قدر الإمكان.

إلا أن الأحلام يتحقق بعضها ويغيب بعضها، والواقع يتحقق بعضه ويغيب بعضه، بل إن الوضع الخاص بالذهن يصبح غريبا مع التقدم إلى الأمام، فطاقتك في وقت الحلم تختلف عن طاقتك في أوقات أخري، وإحساسك بينما تحلم يختلف عن إحساسك بينما تطبق، وهو ما يوضح أن الإنسان كائن واهم يحركه الخيال ويجبره الواقع على التقدم إلى الأمام، مهما كان المطلوب، ولكن لو طلب أكثر من المعقول، صار الأمر مملا، وتحول إلى عبء كبير، وحل على المرء كل ما هو غريب وهجين.

-٢٩-

كانت بنت الجيران، وقد لحقت بنا، ورحبنا بها، وجلست معنا تشاهد التلفاز في حيوية ونشاط، وقد كان هناك فيلم لأمبر هيرد، كان يدعي (حقول لندن)، وكان هناك ظهور قصير للممثل المعروف جوني ديب، أتذكر أنني قد قرأت الرواية التي اشتق منها الفيلم في الأيام الخوالي، لكنني لا أتذكر ملامحها جيدا، ولكن أعتقد أنها كانت تتحدث عن فتاة مستبصرة تغوي الرجال وتتلاعب بالوجدان وتقتل في النهاية علي يد أحدهم، ولكن الغريب في الأمر، تمثل في حقيقة أن العمل لم يرق إلى مستوي الرواية، وهو ما تسبب في الحيرة والإحباط.

عندما يكون لديك عمل جيد، وتريد أن تبني عملا آخر عليه، تأمل في أن يكون المستوي متقاربا، ولكن عندما يكون الفارق كبيرا، تأتيك الخيبة وتصبح أمامك ملازمة لك لا تغادرك ترغب في مضاجعة عقلك وإقحامك في دوامات الإحساس بالنقص والفتور.

كانت بنت الجيران اللعوب تبتسم لي عندما كانت المشاهد الحميمية القذرة تشتعل، وكنت أتجاهلها وأتجاهل ما يعرض، وكانت زوجتي تراقب تصرفاتها بعد أن علمت بأمرها، وقد سقطت حمالة الثوب فعدلتها، وحركت يديها بصورة دنيئة نمت عن إيحاءات غريبة، وقد شعرت بقشعريرة فاحمر وجهي، فنظرت إلي زوجتي، وقد تسللت الغيرة إليها، لكنها حاولت أن تكبت ما وجب كبته، وقد وقفت بهدف إعداد بعض الشاي، فأخبرتها عن رغبتي في بعض الشاي التايلاندي، وقد عبرت الفتاة الصغيرة عن رغبتها في بعض الشاي الأحمر ذي النعناع المقحم، أما الزوجة، فقد أعدت مشروب اللافندر

من أجل نفسها، وقد كان لدينا بعض منه، حيث حصلنا عليه أثناء رحلتنا إلي أسوان.

وبينما كانت الزوجة العزيزة التي نال منها السن تقترب مني، وجدت الفتاة قد انتصبت وطبعت قبلة على خدي، وقد ضحكت بشكل غريب، فاضطربت الزوجة، لكنها سرعان ما قالت (لا بأس بذلك، فإنها بمثابة ابنتك، أيها الرجل العجوز).

استمرت الفتاة في الضحك، وقد قدم الشكر مقابل الشاي، وجلست تحدثنا عن الكثير من توافه الأمور، لكنني سألتها عن سر قبلتها السريعة، فأخبرتني بأنها قد رغبت في منحي بعض الدفء لا أكثر و لا أقل، كما أنني في مقام أبيها، فصمت، لكن الزوجة قد عنفتني بعد رحيلها، وهو ما أدي إلى صراع شديد، لكن الوطأة قد قلت، والأمور قد لانت.

قبل رحيل الفتاة، قضينا الوقت نتحدث عن العديد من التوافه، كما قلت سابقا، وقبل قدومها، كانت تتسوق في الهايبر الكبير، وبعد أن عادت إلى المنزل، جاءتنا، لكنها قبل أن تأتينا، وبعد أن وصلت منزلها بعد عودتها من الهايبر، كانت قد قضت وقتا لتستحم وتتأنق معتمدة على ثوبها الأزرق، لكنها عندما نزلت إلى الشارع، نست شيئا مهما، فصعدت مجددا، وبعد ذلك اتجهت إلي منزلنا، وبالنسبة إلي التوافه، فإنها لا تمثل أمرا يجب أن نتحدث عنه، ولكن من الممكن أن أخبرك بأنها قد تشاجرت مع جارتها الجديدة التي حلت علي المنطقة، جارتها اللعوب التي حاولت أن تخطف زوجها منها في يوم من الأيام، ومن التوافه الأخرى، حبها لقهوة ستاربكس التي ارتفعت أسعارها إلي الضعف، ومن الأمور الأخرى التي تناولها حديثها غير

المجدي، حبها للأثواب القصيرة وملابس السباحة الحمراء وحمالات الصدر نوعية فيكتوريا وأحمر شفاه لوريال، لكنني كنت أحب أن أجاريها لعلني أمنح شخصيتها الثقة التي كانت تفتقر إليها في الكثير من الأحيان، وكانت زوجتي تفعل المثل، لأننا كنا علي علم بأن الصغار والصغيرات في حاجة إلي مساندة، كي تتكون شخصيات سليمة قدر الإمكان، شخصيات تتمكن من مسايرة الأمور والتعبير عن النفس والبناء دون توقف، شخصيات أفضل من شخصياتنا وأفضل من شخصيات الأجيال القديمة، ورغم ذلك لا توجد هذه الخصلة الجميلة في الكثير من أبناء جيلنا، لكنها وجدت فينا، ولهذا عمدنا باستمرار إليها، عمدنا إلي استخدمها، فعندما يمنحنا الإله صفة حميدة، من الضروري استغلالها والتعمق بين جوانبها ومحاولة نقلها إلي غيرنا، ورغم ذلك، لا يعد الأمر جادا، في هذه الحالة، لأن الفتاة جعلتني أحس كثيرا بأنها لا تمثل قدوة لجيلها أو أفضل بناته.

لكن عرض صور الإصلاح قد يؤدي إلى اتباعها في يوم من الأيام، ولهذا من الضروري الإصرار والتكرار في هذه الحالات، ورغم ذلك، كثيرا ما تساءلت حيال درجة ثقتي في عقليتي، كثيرا ما سألت نفسي عن درجة الصواب المسيطرة عليها، وهو سؤال يتجاهله الكثيرون، رغم أنه مهم للغاية، مهم جدا.

إن العقول بأكملها صاحبة حدود، كل عقل في هذا الوجود لديه حدود، ومن يخبرك بغير ذلك، واهم، ومن يحاول أن يتجاهل منظومة فكرية أو أخلاقية ليريح نفسه، واهم، وقد يصنف على أنه جاهل، ولا تحزن من صرامتي، فقد طبقتها على نفسي، وعليك أن تطبقها على نفسك، ولا تعد حدودا للعقل، لكنها تمثل حالة من التنظيم، ولكل إنسان عقله، ولكل عقل تبعات عليه أن يتحملها، فمن يأكل

الشوكولا دون توقف، سيمرض لاحقا، ومن يستمر على نفس النهج فيما يخص الكثير من الأمور دون تطوير، ستتفاقم أوضاعه وستسوء حالته.

لقد أخبرت ابنتي في يوم من الأيام بأنها راشدة قادرة على التفرقة بين الصواب والخطأ، وبأن ما تفعله في حياتها له تبعات عديدة، ومن الضروري أن تتحمل نتائج أفعالها، وعليها أن تتذكر أن الإله سيحاسبنا جميعا، كما أنه سبحانه يعلم ما نفعل قبل أن نقدم عليه ويعلم نتائجنا قبل كل شيء، ولهذا من الضروري تقبل الذات والتخلص من الأخطاء الكبيرة والعمل على تقليل الأخطاء ومحاولة الاقتراب قدر الإمكان، لأننا لا نمثل سوي درجات في نهاية المطاف، والسكينة لا تتحقق إلا في طريق واحد، طريق الإله.

والسكينة المقترنة بالطمأنينة بمثابة الطريق الهائل للصفاء، فلا يغرنك من يجنون الملايين، ولا يغرنك من يتصارعون على الدنيا ويظهرون وجه الهيمنة والوصول إلى القمة، فكل هذا منظر، وكل هذه الصور لا تمثل سوي لحظات مرصودة لا تعبر عن نغمة سائدة، وتقلب الأحاسيس مرتبط بالبشر مهما اختلفت درجاتهم الدنيوية، أما صفاء القلب واستقرار المشاعر، فإنهما بمثابة الطريق المحبوب والسليم، ولا تعني كلماتي عدم التنافس، لكنها تعني التنافس الشريف المتزن.

كنت أقدم مثل هذه الكلمات إلي بنت الجيران، لكنني لم أكن أرغمها على شيء، كما هو الحال مع ابنتي، كما أنني لم أكن راشدا في صغري في بعض الأوقات، إلا إنني كنت أتطور على الدوام، وهو

ما حاولت أن أنقله إلى الأجيال، لكن الأجيال لا تستوعب الأمور كما تعتقدون، فالأجيال الجديدة لا تبحث سوي عن الماديات.

-٣٠-

في يوم من الأيام، ذعرت ذعرا شابه بعض السكون، فبمجرد أن ذعرت، هدأت، فقد استيقظت من المنام على صراخ عال، فقد كان الأمر أشبه بالوصول إلى الذروة والنزول السريع، وهو ما يؤدي إلى كآبة بعد ذلك، ولكن كان الموقف ملخصا على هيئة صورة، صورة عبرت عن زوجتي بينما كانت تصرخ بسبب صرصور، وقد ضربته بنفسي فهدأت الأمور.

كنا في مرحلة الشباب وقتها، لكنني لم أنس هذا الموقف بأي شكل من الأشكال، وقد تعجبت حينها من قدرة مخلوق صغير علي هز وزعزعة الإنسان وإحداث الاضطراب وإحضار الجلبة إلى المكان، وكأنها إشارة للإنسان، وكأنها حالة من الإخبار، حالة تخبره بأن يدرك أن الإحساس يتفوق على كل شيء، وأن الأمر لا يتعلق بشكل أو حجم أو فكر أو غرور أو عناد، لكنه يتعلق بتأثير وتقلب وتغير وتنوع وسرعة نزول وحدث غير متوقع قادر علي درء السكون وإحداث الجلبة في كل مكان.

يتحرك البشر بخوفهم، فالخوف يحركهم، الخوف يمثل المحرك الرسمي للبشر، الكل يتحرك بسبب الخوف من الجوع، الخوف من المخاطر، الخوف من المستقبل، وهكذا، ولكن هل توقف الإنسان مع نفسه وتأمل مساره وحقيقته؟

إن الخوف قد ينشب من صرصور، وقد ينشب من مصيبة كبري، والموت بمثابة الفزاعة الأكثر تأثيرا، ولكن الأمر بأكمله بيد الإله، علينا أن نسلم، وعلينا أن نهدأ، وهو ما يدعو إليه الدين علي

الدوام، لكن قدرة مخلوق صغير علي زعزعة الكيان أمر يحتاج إلى الدراسة والاهتمام، أمر يحتاج إلى إدراك حجم الغرور، ذلك الغرور الذي لا مناص من أن يضمحل في يوم من الأيام، غرور كل إنسان.

لقد ظل مشهد الصرصور والصراخ عالقا في ذهني لفترة طويلة، وقد حدثت الزوجة عنه بعد أن استيقظت، وها هي تجلس أمامي تحدثني عن الأيام القديمة أيضا، تستدعي الذكريات كما أفعل أنا، وها هو الشيب يغطي الجسد والشعر وكل شيء، بل وربما يغطي البيت أيضا، فالبيوت تشيخ كما يشيخ الإنسان، ولا يمكنني أن أنكر حقيقة استمتاعي باستجلاب أحوال القدم، فكلما كان الشيء عتيقا، أحببته، وكلما كان قديما للغاية، نال قطعة من قلبي، قلبي الذي امتلأ بالكثير من الأشياء حتي صار عاجزا عن استقبال المزيد، فحب الدنيا مرهق مع الوقت، ولهذا كان من الضروري أن أخلص القلب مما يرهقه، كان من الضروري التنقل بين جوانب الروحانية علي الدوام بقوة وصمود، وربما أكون قد فعلت ذلك، لكنني عاجز عن التمييز، في حقيقة الأمر، فربما أكون روحانيا، وربما لا تمثل المادية سوي غشاوة بالنسبة إلي، غشاوة ستتطاير مع الوقت، ستتطاير فجأة كما ستتطاير الكثير من الأشياء الأخرى.

منحتني زوجتي كوبا من الشاي وجلست تحاورني عن الكثير من الأمور، وقد تحدثت عن اللقاء الأول والنظرة الأولي والقشعريرة الأولية والمشاعر الفياضة والحب الجميل والملبس الأنيق والرائحة العطرة والبيئة المشعة، تلك البيئة التي تطغي علي العشاق في البدايات، وعليهم أن يسايروها قدر الإمكان علي طول الطريق، ولا بأس ببعض اللحظات من الراحة، تلك اللحظات التي تمثل الهدوء الذي يسبق الانفعال، والركون قبل الانطلاق، والدراسة قبل الخوض،

وهو ما يمثل المنطق الذي من الضروري أن تبني عليه كل الأمور، فالفواصل ضرورة للإحساس بالذروات، كما تعلمون.

-٣١-

عندما كنا شبابا، أحضرت الزوجة صديقتها الأمريكية إلى المنزل في يوم من الأيام، لقد زارت مصر ومكثت لمدة بلغت أسبوعين، وقد أقامت في منزلنا ورحبنا بها بشدة، فقد تعرفت إليها بينما كانت في صغرها تدرس بالخارج، وقد مرت الأيام سريعا بعد أن أخذناها في جولة بالأهرامات والمتاحف والبرج وغيرها من الأماكن.

في مرة من المرات، جلست تحدثنا عن إحساسها بأن المصريين يعانون من عقدة الخواجة بشكل كبير، وقد وضحت أن هذا الأمر أكثر ظهورا في الشباب مقارنة بالأجيال القديمة، وتابعت كلماتها لتخبرنا بأن هناك منتجات طعام مصرية تتفوق على نظيرتها الأمريكية، وهناك منتجات صغيرة كثيرة تتفوق على منتجات الغرب أو تشبهها، وأن الفارق قد يظهر فقط عندما يتعلق الأمر بالصناعات الثقيلة، وهو أمر قد يمكن للمصريين الوصول إليه في المستقبل.

يومها، شعرت بحزن عميق، فالغريبة تأمل خيرا، ونحن متشائمون بهذه الصورة، الغريبة تتمني لبلدنا التقدم إلى الأمام وتعلي من قدرها، وهناك مصريون يقللون من شأنها، وكثيرا ما لاعبتني فكرة الأب الفقير، وكثيرا ما تساءلت عن فكرة التخلي عن الأب لمستواه المادي، بدلا من تدعيمه والوقوف إلى جانبه ومساندته، ولكن المشكلة تكمن في سرعة الزمان، فالشباب يريد أن يعيش، والوقت يجري، وقد تحتاج المساندة التضحية بالحياة بأكملها، في حقيقة الأمر، وهو ما يراه الشباب، ولهذا يهرب الكثيرون عندما تتاح لهم الفرصة، لكنهم رغم ذلك يكتشفون مع الوقت أن الهروب لم

يكن سوي مخرج مؤقت، فلا يوجد هروب من الدنيا إلا بالرحيل، لأن الجسد يرهق الروح، كما تعلمون، والخيال يختلف عن الواقع، كما تدركون.

كانت الفتاة تتحدث كثيرا، كانت ثرثارة، وقد قدمنا لها الكثير من الطعام على مدار الأيام، وقدمنا الحلوى بأشكالها المختلفة، وكانت تلفظ كل ما هو مستورد أو أمريكي، فقد رغبت في التعرف إلى كل ما هو مصري، لتكتشف الجديد الذي لا تألفه، وهو الحال مع محبي السفر، كما تعلمون.

لم تكن على دراية جيدة بالدين الإسلامي، وقد تحدثنا عنه في مرة من المرات، ولم تكن ذات دين صريح، وكانت متحررة بشكل كبير، ورغم حماستها، كانت تخفي حزنا في الباحة الخلفية، كانت تخفي حزنا لم تتمكن من البوح به لأسباب عدة، لكنني قد لاحظت ما كان يلاعب خواطرها بين الحين والآخر، وقد اكتشفت بعد ذلك أنها كانت تحكي لزوجتي عن صراعتها وعلاقاتها وعملها المرهق، وقد كان مستواها المعيشي جيدا بشكل كبير.

الكثيرون يخفون الكثير، الكثير من المخاوف، الكثير من الأحزان، الكثير من الصراعات، الكثير من الآمال، الكثير من الخيبات، الكثير من السيناريوهات التي تحققت والتي لم تتحقق، وهكذا، وهناك أيضا ظل النفس، ذلك الظل الذي يمثل الجانب المظلم، ذلك الظل الذي يمثل كل ما هو غير مقبول، وكل ما يعد عواطف مكبوتة أو مشاعر مدفونة أو قيما مرفوضة.

كانت الفتاة بضة الشباب، كانت ناعمة، لكن زوجتي كانت أكثر نعومة، والنعومة تتصل بالسلوك والتعامل وطريقة الكلمات، فالكلمات تخرج من الفتيات بشكل مختلف، ولكن التركيز يحتاج إلى عدم الانشغال، وكما تعلمون، فإن المسئوليات تشغلنا فنتجاهل مثل هذه الأمور، كما أن الإنسان الحكيم يتجاهلها لينجو بنفسه من دوامات الهراء والفراغ.

هناك من يسخر ممن يركزون مع النساء لأنه حكيم، وهناك من يسخر لأنه عاجز عن ملاطفتهن والتعامل معهن، وهناك من يسخر رغم أنه قادر علي الملاطفة، وهناك من يسخر لأنه لا يتلذذ بأي شكل من الأشكال بهذا السياق، وبالفعل هناك رجال لا يشعرون باللذة في التحدث إلى الكثيرات من النساء، وهناك رجال لا يتلذذون سوي بالجانب الحيواني، وهناك من يتجاهل كل ذلك ويتقي الله ويرتقي روحيا في حقيقة الأمر.

إن التلذذ متغير، شأنه شأن كل شيء، والتنقل متجدد، شأنه شأن كل شيء، والاستقرار يخص بعض الأمور، ولو تأملنا الغرب قديما لأدركنا أنه كان منغلقا، ولعرفنا أن انفتاحه قد حدث قريبا منذ عقود، وأنه انفتاح وهمي لا يسير كما نتخيل، لأن هناك حدودا على أرض الواقع. هناك تكرار، وهناك خيال، وهناك أوهام، وهو ما يمثل المعقول، كما أن الشرق قد انفتح أيضا، لكنه انفتاح في الخفاء في الكثير من الأحيان، وقد يصبح علنيا أيضا في بعض الأوقات، وهو ما يعني أن الإنسان واحد، وأن النجاة تتصل بالفرد لا أكثر، وأن كل إنسان سيدرك في النهاية أن حريته كانت مقيدة وأن سفينته قد خدعته، فقد ظن أن القيادة كانت له، لكن القيادة كانت من نصيب

الرياح، ورغم ذلك، يشارك كل إنسان في الأمر بجزء يحاسب عليه، وهو ما يمثل المنطقي والمقبول.

إن الانفتاح المقصود، يعني حرية التكلم دون حدود، حرية العلاقات دون قيود، حرية التحرك في شتي المجالات، لكنني أضحك كثيرا عندما أري إنسانا يتخيل أن حريته ستمنحه شيئا، فالواقع يختلف عن الكلمات، فحياته في النهاية لن تمثل سوي عمل وزواج وسعي وانشغال ومتاهات ومكاسب محددة.

كانت الفتاة تتأملني في لحظات كثيرة، كانت تستهجني في بعض الأحيان، وكنت أفعل المثل أيضا، لكن التناغم سيطر على الأجواء في نهاية المطاف، وقد لاحظت أن وجدانها قد تأثر بتجربتها عندنا، وكانت الزوجة سعيدة بوجودها، وهو ما أدي إلى بيئة الدفء والانسجام.

-٣٢-

أتذكر الكثير من اللحظات المؤثرة في حياتي، أتذكر الأمور التي ولت والأمور التي حلت، أتذكر كل ما يمكن تذكره، وأتعجب من مرور الزمان، وأتساءل حيال كل هذا الكلام، وأعتقد أنني قد حققت كل ما رغبت فيه، لكن الخطأ قد سيطر علي الأمور في بعض الأحيان، ورغم ذلك لم تكن المسيرة باطلة بأي شكل من الأشكال، فقد حققت نجاحات عديدة، ووصلت إلي مناصب كثيرة، وقدمت روايات وأفكارا وترجمات ومقالات، وحضرت أكبر الاحتفالات مع الأصدقاء والصديقات، وكم من مرة تأملت نجاحي في إشراق، نجاحي الذي اقترن بنجاح الآخرين، فكنت أسعد من أجلهم ومن أجلي، وهو ما مثل المعتاد في حقيقة الأمر.

لقد حل المساء، وها أنا أجلس أمام التلفاز مع زوجتي، نشاهد فيلما قديما لصوفيا لورين، ونتبعه بعمل مثير لبراندو، إنه فيلم يتحدث عن ذكريات وقصص ومعارك وصراعات نفسية قبل أن تكون خارجية، وها هي تندمج مع العمل وتنسي وجودي، وها أنا أتأملها بينما تشاهد الفيلم في انسجام، فكم من مرة أحببت فيها أن أتأمل الآخرين وهم متفاعلون منسجمون في متابعتهم متعمقون، وقد تفجرت منها العواطف الجياشة والانفعالات، وقد تدفقت كنتيجة لمتابعتها للمشاهد الخلابة، تلك المشاهد التي عجت بالعواطف والأفكار والمشاعر الفياضة، وعندما تنتقل المشاعر من الشاشة الصغيرة إلي الخارج، يصبح الأمر جذابا خلابا جلابا مثمرا مميزا ممتعا شيقا رائعا هائلا ممتازا بارعا، وهو ما أثلج قلبي.

فقد كنت أسعد دائما بسعادة غيري، وكنت محبا للخير على الدوام، وقد تخلصت من العدائية البشرية بمساعدة الكتابة، التمرين الذي كثيرا ما ساعدني على التقدم إلى الأمام، والتخلص من كل ما يرهق الأذهان، فكنت أفرغ طاقاتي عبرها، وكنت أرسل أفكاري من خلالها، فكانت بمثابة المخرج الأساسي للكثير من الضغوطات.

شاهدنا بعد ذلك فيلما يدعي (الليل)، لمارشيلو ماسترويانى، لطالما أحببت هذا الفيلم، لطالما أحببت كادراته بلونيها الأبيض والأسود، لطالما أحببت عملية التشريح التي تتعرض لها العلاقة بين الرجل والمرأة من خلاله، إنه يمثل تحفة فنية بكل تأكيد، رائعة تستحق كل التقدير، ومتعة تفوق الأذهان وتلاعب الوجدان وتحرك السكون لتدفع الجدران إلى التشقق وعدم الصمود من فرط القوة والحلاوة، حلاوة الكلمات والموسيقي والأفكار، وهو ما جعلني أتنقل بين المشاهد الخلابة في صمت تام.

عندما يحل الصمت، يشعر المرء بتدفق الذاتية والانسجام مع المعروض، والتحدث داخليا قبل التحدث خارجيا، وهو ما يؤدي إلى الإبداع أو الاستفادة من الإبداع، بمعني أن الصمت يساعدنا على الإنصات إلى فن أنفسنا وإلى فن الآخرين، وهو ما يؤدي إلى الكثير من الثمرات والخيرات، على كل المستويات، المستوي الفني، الفكري، العاطفي، الحسي، إلخ.

يقلل الكثيرون من إبداع الآخرين، رغم أن الإنصات إليه مهم، فانسجامنا مع ممثلين أو لاعبي كرة أو فنانين في الصغر، يمنحنا حماسة، وبانتصاراتهم نشعر وكأننا قد انتصرنا، بمعني أننا نلبس كياناتهم علي أنفسنا، ومن الممكن لإطراء يخصهم أن يحدث

صدي ممتازا بداخلنا، فنشعر وكأننا من مدح، ورغم ذلك من الضروري الانتقال في فترة من الفترات إلي الأنفس الحقيقية، وحينها يكون وقت الحماسة التحضيرية قد انتهي، وصار من الضرورة أن تتصل الحماسة بنا وحدنا، أي من الضروري وقتها أن نتحدث عن انتصاراتنا، وهو ما يتطلب مجهودا كبيرا والتقليل من الهوس بالأيقونات الوهمية.

وعندما كنت أشاهد فيلما، كنت أستحضر الكثير من الأفكار التي كانت تساعدني في عملية الكتابة، ورغم أن هناك أفكارا كنت أستحضرها معتمدا علي الواقع أو البيئة الخارجية، فإنني كنت أعمد إلي الأفكار السينمائية وأحولها إلي مادة يمكن استخدامها كمادة كتابية، وكنت قادرا علي استخدام عمل غربي علي سبيل المثال، وتعريب بعض أجزائه، لكنني كنت أستعير مبتعدا عن السرقة أو أي شيء من هذا القبيل، وهو ما منحني مصداقية بين القراء الأعزاء وقتها، وقد تابعت الكتابة لعقود، ووصلت إلي المرغوب فيما يخص التحليل النفسي والأفكار الواقعية والفنتازيا والكوميديا السوداء، ولكن ربما أكون قد عجزت عن الوصول إلي الحقيقة الكاملة، لأننا، نحن البشر، لا نعرف شيئا في نهاية المطاف، فما نحن، إلا أدوات، وهو ما يدركه كل إنسان راشد مع الوقت، ولا تعني كلماتي التقليل من الإرادة البشرية والوعي الفردي أو الجمعي، لكنها تعني أن الحركة لا يمثل الإنسان منبعها الوحيد، فالحركة محكومة بالكثير من العوامل، والبحر لا يخلو من العواصف والصراعات والتخبط في الكثير من الأحيان.

إن عملية الاستعارة أمر مهم للغاية فيما يخص الكتابة والإخراج السينمائي والكثير من الأعمال الإبداعية، وقد صرح مارتن

سكورسيزي في مرة من المرات بأنه قد استعار من الكثير من الأفلام الإيطالية القديمة، كما أن تيم برتون قد صرح بالمثل، وعندما يتعلق الأمر بالمفكرين، نجد أننا أمام نفس السياق، فعندما تتصفح تاريخ مفكر، تجد تحدثه عمن أثروا فيه، فالإرث البشري يكمل بعضه البعض، ولهذا من الضروري أن يدمج الفخر الفردي مع الفخر الجماعي، وحينها تبزع الشمس وتصبح واضحة بقوة.

-٣٣-

لقد نزلنا بهدف التجول ليلا، وقد تحركنا قرب الحدائق الجميلة التي ترعرعت وزهرت مؤخرا، وقد لاحظت أن المنطقة قد صارت أكثر ازدحاما، فقد حل الكثير من السكان الجدد على المنطقة، وقد صار الأمر غريبا وهجينا.

عندما تتأمل البنايات والتطور في المعمار، تشعر بأن هناك حالة من البناء الدائم والإصرار، ولكن كل هذه البيئة لا تمثل أهمية بالنسبة إلي الوعي دون وجود الإنسان، ورغم ذلك لا أتفق مع هذا الفكر علي الدوام، فالإنسان يمثل كائنا صغيرا للغاية بالنسبة للوجود، بمعني أن غيابه لن يصنع فارقا، ولكن الأهمية متصلة بالوعي الفردي والجمعي، الوعي الفردي والجمعي، الوعي الفردي والجمعي، فالتلاشي الخاص بوعي أحدهم يؤثر علي وعي الآخرين، وهو ما نلاحظه بوضوح، ولكن الأمر بالنسبة إلي الوجود لا يعد مهما أو حدثا كونيا استثنائيا في حاجة إلي تشريح وتأمل وتفسير وتدبر.

كانت الجولة هائلة، وقد أحضرنا البوظة، وشربنا القهوة، وأكملنا الجولة، ووصلنا إلى حديقة كبيرة امتلأت بالكراسي وحفلات الشواء والباربكيو الهائلة، وقد جلسنا واستمتعنا وتنقلنا بين الكلمات العذبة والمشاحنات المقبولة، ولكن ما زاد الأمر حلاوة، تمثل في إقبال بنت الجيران علينا، فقد جلبت لنا بعضا من الطعام السريع، لكنه كان خفيفا فلم يحدث ضررا جليا، وقد تحدثت معنا عن الكثير من الأمور كعادتها، وانتقلت بين الموضوعات المتشعبة التي لا تعرف استقرارا، وقد سارت معنا حتى عدنا إلى المنزل.

لقد غادرتنا، ودخلنا منزلنا، وجلسنا نتحدث قليلا قبل النوم بينما كنت ممسكا بكتاب قصير لتشيخوف، ذلك الكاتب الممتاز الذي لم تترجم الكثير من أعماله إلى العربية للأسف الشديد.

لم أشعر قط بأنني بائس هرم، ولو أظهرت ذلك عبر كلماتي، فإنها كلمات لم تتصل بإحساسي، وكثيرا ما نتفوه بالكلمات دون أن نحسها، دون أن نشعر بها، وقد كنت حماسيا قبل نومي بشكل لا يوصف، فقد لحقت بي حماسة لم تسمح لي بأن ألج مرحلة النوم المرجوة، وقد تذكرت الكثير من الأمور التي حدثت في الأيام الخوالي، تذكرت كل هذا بينما كانت الأباجورة بجانبي تمنحني نوعا من الدفء المرغوب، ولا يشترط أن يكون الدفء دفئا مرئيا لكنه محسوس، محسوس بكل ما تحمله الكلمات من معني، فالأمر بأكمله يتعلق بالإحساس، الإحساس الذي يحركنا ويثلج قلوبنا، وهو ما يمثل المنطق، المنطق الذي شيدته التجربة البشرية علي مدار العصور.

تذكرت عندما كنت في بورتو ريكو، لقد حدثت أمور لم أحدثكم عنها، حدثت أمور لم يصح التحدث عنها، ولكنني أرغب في الإفصاح والصياح والتنقل بين كل ما هو متاح، وهي إتاحة متصلة بلحظة تهور، لا بلحظة رشد وسكون، فرغم رغبتي في السكون بهدف النوم، فإن الحماسة قد نالت مني، وها أنا أحدثكم وكأنني في الصباح، ولا أعلم كيف وصلت الأمور إلى هذا الحد المخيف، وأخاف أن ينال الأرق مني في كل ليلة، فيصبح الأمر مرهقا ومتعبا، لأن النوم مهم للغاية، كما تعلمون.

النوم بمثابة الهروب الكبير، النوم مهرب الكبير والصغير، النوم يحقق الكثير من الأحلام، وفيه نري العديد من الأنام، وتظهر تخاريف تعبر عن الصراع، وأخري تعبر عن أمور لم تتحقق، وأمور رغبنا بشدة في تحقيقها، وأمور نال النسيان منها.

-٣٤-

عندما كنت هناك، حاولت فتاة النيل مني، فتاة من الفتيات، فتاة كانت جميلة، وقد اقتربت مني بثوبها الغريب وضبها الكبير وفخذها المعضل، لكنني تجاهلتها وقتها، وقد لحقت بي بينما كنت أحاول الخروج من مؤتمر صحفي كبير، مؤتمر اتصل بالسياسة والآداب، وقد أمسكت بي عند المدخل، وأخبرتني برغبتها في مصاحبتي، فأخبرتها بأنني مشغول، وبأن الأجواء لا تسمح لمثل هذه الأمور، كما أنني لا أرغب في ذلك.

بالطبع، يمثل الأمر فرصة للرجال المتهورين، يمثل فرصة لمن يشعرون بأن هناك ما يفوتهم، يمثل فرصة للطماعين، خاصة عندما تقع فتاة متهورة في طريقك، وقد كثرت الفتيات المتهورات بصورة غريبة في مجتمعنا وفي المجتمعات الأخرى أيضا، فصرن كالمجنونات، صرن يرغبن في الكشف عما لا يصح الكشف عنه، والتنقل بين صور لا يصح أن تكون موجودة على الساحة.

لقد كان الحجب بمثابة الحافز، ومع الكشف، صار الأمر مملا ورديئا، وقد تجاهلتها وصممت على ذلك، إلا إنها قد تبعتني، ووصلت معي إلى الفندق الذي كنت أقطن فيه وقتها، وقد لفظتها بصورة يشملها الإصرار، وشعرت بأنها كانت تشبه داكوتا جونسون إلى حد كبير، لكن بشعر غريب، وقد تذكرت الأسطورة اليونانية التي تحدثت عن رغبة إلهة في السيطرة على ذكر كبير وانتزاعه من بين أحضان زوجته، وعندما لفظها، عاقبته وتسببت في الكثير من الأذى الذي نال منه.

وبالفعل، حاولت هذه الفتاة أن تضربني، لكنني قد دافعت عن نفسي وأبعدتها عن طريقي، إلا إنها قد صممت علي ولوج الغرفة، وقد دخلت، لكنها بمجرد أن دخلت، أدركت الموقف، فقد كانت نيمفو لعينة ذات أحاسيس رديئة، لا تحس العاطفة الجياشة ولا تفهم الرابطة المتينة، فقد كانت ترغب في المضاجعة بشكل مهين، وقد اتصلت بالأمن وأبعدتها عن طريقي، وقد تظنون أنني أفبرك الأمور، لكنها الحقيقة التي داهمتني، فقد كانت أشبه بالمخدرة، وكانت الأمور بمثابة الصدمة، وقد مرت كما مر كل شيء، وتجاهلت الموقف، لكنني تساءلت حيال حقيقة التائهين والمجانين وكل من يسيرون دون درب سليم، ويبعدون عن كل ما هو جميل، وقد توصلت إلي أن المشاعر تغيب عن الكثيرين وأن المادية الشرسة قد نالت من البشر فأرهقتهم وجعلتهم يرغبون في الوصول إلي رغباتهم دون أن يسلكوا الطرق الصحيحة والسليمة، فالطريق الصحيح مرهق لكن ثمراته ممتدة وعظيمة، أما الطريق الخاطئ، فإنه سريع لكنه مدمر علي المدي القريب، نعم، القريب، وليس البعيد.

أتذكر أنني قد حضرت مؤتمرا آخر، وكان يتحدث عن الفنون وتأثيراتها على الشعوب، وقد كان مؤتمرا عظيما للغاية، وقد تعرفت إلي صديق ممتاز وقتها، صديق ساعدني في الكثير من الأمور المتعلقة بالتصوير والتراخيص، وعندما غاب في يوم من الأيام، زرته في منزله الكبير الذي كان قريبا من الشاطئ.

كان المنزل واسعا للغاية، كان ممتدا لمسافة ممتازة، وقد حوطته الأشجار فمنحته رونقا، كما أن الأزهار كانت تسطع في الحديقة، وضوء الشمس كان يلاعبها فيخرج منها أفضل ما يمكن أن يخرج، إلا أن هناك شيئا لم يكن جيدا، وقد تمثل في صندوق القمامة

الكبير الذي كان موجودا عند المدخل، وهو ما انتزع بعضا من الجمال وألقي به في الهاوية، وهي طبيعة كل شيء في حقيقة الأمر، فكل شيء فخم يحصل مجبرا على بعض الشروخ، وهو ما لا يمكن تجنبه، لأن الكمال غير موجود.

رحبت بي زوجته الأنيقة، وقد قدما لي بعض الشاي، وأخبرني بأن غيابه قد اتصل بالمشاغل التي حلت عليه بصورة فجائية، وقد تحدثت زوجته عن حجم أعماله ومشاغله وصراعاته، وهو ما يمثل الأمر المعتاد الذي يحاول كل زوجين أن يتحدثا عنه أمام الاخرين، كي يبلغا من الأهمية ما يمكن أن يبلغ، وهو أمر معهود متصل بربط الحركة بعمل صعب، مما يشعر الإنسان بأنه مهم في هذه الحياة، رغم أنه لا يمثل سوي لحظة بالنسبة إلى الكون، هو وكل ما يخصه.

ستقابل الكثيرين ممن يتحدثون عن المناصب والمسميات، وعندما تتأمل صغرهم وطفولتهم ومراهقتهم، تضحك كثيرا وتتساءل، كيف يمكن للمراهق أن ينضج بهذه السرعة ويصف نفسه بلقب ما ويعمل على إظهار القيمة بشتى الطرق ويطور غرورا وهميا معتقدا أنه يمثل المركز وينحي الكثيرين ويفلتر العلاقات ويعتقد أنه على صواب على طول الطريق؟

وهو ما يثير الضحكات في الأرجاء، فالوهم مدحض، والخيال ملفوظ، وتنحية الذاتية العميقة أمر مطلوب، خاصة عندما تستشري وتتعمق وتتنقل بين الأرجاء المختلفة، وهو ما يمثل المرغوب، ولا تعني كلماتي قتل الذات، لكنها تعني التحرك بتوازن وثبات دون تطرف يرهق صاحبه مع مرور الوقت.

وقد جلست زوجته تحدثني عن أعمالها ومهامها، وها أنا أتذكر ومضات من الماضي رأيت فيها زوجتي تتحدث عن العمل بشغف، وأعتقد أن الأمر طبيعي ومهم، فمن الضروري تغذية الذات طالما أن هناك تواضعا، وهو ما يمثل المطلوب.

ومضات كثيرة تنهال على ذهني وتقتحم مخيلتي وتؤثر على وجداني، وها أنا أنسي بعضا مما حدث وقتها، لكنني أتذكر أنني قد خرجت معهما يومها إلى الحديقة في الجوار، وتحدثنا عن الكثير من الأمور، وانتهت الليلة علي خير، وعندما عدت إلى الفندق الذي مثل منزلا من المنازل التي قطنتها خلال الفترة، نمت نوما عميقا وحلمت بالكثير من الأمور التي نسيتها، وها أنا أستدعي كل هذا قبل نومي، وها هو النوم ينادني، وها أنا أستجيب بحرارة.

-٣٥-

يحل الصباح، أجلس بالحديقة مع الزوجة، نتحدث عن الكثير من الأمور، أقص لها العديد من الذكريات، فعندما ينال الشيب من الإنسان، تبدأ الذاكرة في البحث عما فات، وهو ما يعد خليطا من المشاعر الإيجابية والمشاعر السلبية في حقيقة الأمر.

في صغري، حضرت محاضرة تتحدث عن كون الجنس وسيلة تعويضية عن نقص أو شيء من هذا القبيل، وقد تنقلت المحاضرة بين الكثير من الأمور، لكنها وضحت في النهاية أنه لا يعد بالضرورة وسيلة تعويضية، فمن الممكن للكثيرين وللناجحين أن يمارسوا الجنس بعنفوان وفي كثرة، كنتيجة لشبقهم المرتفع وغريزتهم العالية وخيالهم الممتد، وقد كان المحاضر رجلا غريبا أحسست فيه نوعا من اللامبالاة وشعرت بأنه كان من البشر الغرباء الذين يصعب التآلف معهم والتحدث إليهم، لأسباب غريبة وعجيبة.

انتقل بعد ذلك إلى موضوعات عديدة، تحدث عن بعض حماقات سبينوزا ووصف عقله بالصغير حينما تعلق الأمر بنظرته الخاصة بالخلق، وقد هاجم ديكارت أيضا ووضح الكثير من الغفلات، فقد عرض الوهم البشري بصورة لا توصف، ووضح أن الجميع معرض للخطأ، وأن الإنسان يخطئ ويصيب.

وضح بعد ذلك أن الشكوى تعبير عن المزيد من الرغبات والأمنيات والآمال والرغائب، وقد تابع كلماته ليخبرنا بأن أكثر الأعمال الدرامية والروائية روعة مبنية على الشكوى والصراع، لكنها في الوقت عينه تظهر قدرا من الملل ودرجات من التأرجح والمبالغة.

كان فيلسوفا غريبا، كان يتنقل بين الموضوعات دون هوادة، وكان يفتح الطريق للكثيرين ليتحدثوا بعفوية دون تعقيد، وهو ما دفع الجمع إلي المشاركة، وقد سألته عن رأيه إزاء حرية التعبير، فوضح لي أن الأمر خدعة، وأن الإنسان يتحدث ليسد الفراغ وليرضي غروره ورغبته في التعبير عن نفسه، لكنه لن يقنع أبدا، ولن يرضي أبدا إذا سار علي النهج نفسه إلي الأبد، فمن الضروري للمرء أن يري أن رأيه لن يغير العالم، وأن العالم موجود بينما هو عرضة للتلاشي في أي وقت، والتلاشي متصل بالانتقال، إلا أن هناك نموذجا غير مفعل وآخر مفعل، وعندما يحل التلاشي نصبح في وضع غير مفعل، وعندما تنتهي الفترة ننتقل إلي عالم جديد حيث النموذج المفعل، وهو ما يعد أمرا غيبيا من الضروري ألا نتعمق فيه، لأن عقولنا الصغيرة عاجزة عن إدراكه.

انتقل بعد ذلك إلى التحدث عن وضع الأمان، وضح لنا أن البشر يتبادلون الأمر دون أن يشعروا بذلك، فكل منهم يمنح الآخر منزلة منخفضة مضطربة كي يشعر هو أنه في وضع أفضل وأنه يعيش بصورة أكثر أمانا، لكن الغريب في الأمر يكمن في حقيقة أن الجميع يمارس السياق بشكل متبادل، والكل يعمد إلى نفس الطريقة كي يشعر بالأمان، إلا أن الجميع عرضة للخطر والتأثر سلبيا في أي وقت في حقيقة الأمر، وهو ما يعد سنة الوجود التي تمنح الإنسان الخير والشر من أجل الاختبار.

أخبرته بأنني لا أتفق معه، فالأمر ليس مطبقا على الجميع، وهناك من يشعر بالأمان عبر إحساسه بذلك وإحساسه بأن الآخرين آمنون أيضا، وهو ما يعد أمرا موجودا دون نقاش، لكنه أسرع بمعارضتي وأخبرني بأن الدواخل تختلف عما يكمن بالخارج، وأنه من

الضروري ألا نتأثر بسذاجة بالعواطف المعروضة علانية، لأنها لا تمثل الحقيقة و لأنها لا تمثل سوي قناع، قناع من الممكن أن يكون حقيقيا ومن الممكن أن يكون زائفا، لكنه يظل في النهاية قناعا، بكل ما تحمله الكلمات من معني.

لم أبال، سريعا ما انتقلت إلي موضوع آخر، حيث تناولت موضوع الغرور، فأخبرني بأنه يري أن الغرور أمر متأصل بداخل الإنسان، وأنه يظهر بقوة في الشباب، فتجد الشاب يسير بين الناس ليخبرهم بأنه الأفضل والأقوى والأكثر ذكاء، لكن الغريب في الأمر يكمن في حقيقة أن الكل يقدم علي الأمر نفسه، وهو ما يعد محل سخرية وغرابة، لكن الغرور يتلاشى مع الوقت، وحينها تهدأ النفس، وإن لم يضمحل، أرهق صاحبه وأخذه إلي أتون الجحيم، وحينها ستكون زيارته للجحيم زيارة لا تنسي، زيارة قادرة علي إرهاق الإنسان وإخباره بحقيقته وحجمه الحقيقي.

تحدثنا بعد ذلك عن إعجاب البدايات، وقد وضح أن الإنسان يعجب بأخيه الإنسان في البداية، وعندما يتعمق التكيف، يقل الإعجاب مع الوقت، ليبحث العقل عن شخصية جديدة يعجب بها، وهو ما يعد أمرا تبادليا في حقيقة الأمر، وقد تابع كلماته ليخبرنا بأن الإعجاب يزول بعد فترة بسيطة، ولهذا من الضروري للمرء أن يدرك أن ملاحقته إعجاب الاخرين لا تمثل سوي سراب، لأن البشر يصل عددهم إلي المليارات، والإنترنت قد قتل المسافات وعرض الكثير من المواهب والأفكار، فلم يعد الأمر جذابا كما كان في الماضي، وهو ما يعد الحقيقة التي لا يمكن إنكارها بأي شكل من الأشكال.

كما أن الأمر لا يتصل بالعصر الجديد على وجه التحديد، لكنه يتصل بسنة السياق منذ البداية، فالتكيف يقتل كل شيء ويجعلنا نبحث عن كل جديد، إلا أن الجديد يتحول مع الوقت إلى قديم، ولهذا، طوبي للسعداء بالتكيف وطوبي للروتينيين، لكن لا بأس ببعض المغامرة بين الحين والآخر.

كانت الزوجة تنصت إلى كلماتي بتمعن، وكانت سعيدة بذلك، وقد تابعت كلماتي لأحدثها عن المزيد بينما كان الشاي يتوج جلستنا الجميلة والأنيقة، وقد ولجنا المنزل بعد ذلك بهدف الاستراحة من ضوء الشمس الشديد الذي أرهقنا في حقيقة الأمر رغم أنه كان جذابا في البداية.

-٣٦-

جلسنا نتناول طعام الغداء، كانت الوجبة مشبعة، كانت تتكون من الأرز والدجاج المطبوخ بصوص الناندوز والسلطة اليونانية بالتزاتزيكي، وكان الدفء يتوج اللحظة ويشمل الجلسة ويلاعب الحماسة ويحرك اللذات، إلا إنني قد جلست أفكر في الكثير من الأمور حينها، وقد تنقل العقل بين العديد من الموضوعات، فلم يغادر موضوعا إلا وشرع في موضوع آخر، فأحسست بدوخة شديدة بعدها، واسترحت لفترة طويلة.

لقد فكرت في حقيقة أن كثرة الخيرات وقلة الكدح بمثابة الطريق المباشر لقتل التباغض والتحاسد، ولهذا سينزع الغل من الصدور حينما ندخل الجنات، فمع الكدح الشديد وكثرة البشر وقلة الخيرات، ينشب التحاسد وتتعمق الغيرة ونصبح في غابة، وهو ما يعد أمرا حزينا لا يمكن تجنبه طالما أننا نتحرك فوق سطح الأرض، ولهذا من الضروري أن ندرك أن المثالية وهم وسراب، لأن طبيعة البنية الأرضية لا تسمح بها إلا نادرا، وهو ما يعد أمرا مخيفا في حقيقة الأمر، خاصة مع التقدم إلي الأمام، وتعمق المادية الشرسة، واستشراء الرأسمالية المتعمقة، وظهور العديد من الآفات التي ملأت العصر بالهراء والخدع والهوس والصراعات.

إن الرؤية مختلفة عندما يكون المرء في عنفوان شبابه، ولو تأملنا الشيب، لأدركنا أنه تهذيب للنفس ودرء للمفاسد، ولو صمم المرء علي المفسدة في عجزه، لأرهق نفسه بصورة لا توصف ولوصل إلي أتون الجحيم بقدميه، لأن الطاقة تخور مع الوقت، ومن لا يدرك ذلك أو يجابه ذلك، واهم كواهم تتبع السراب فأرهقه وسخر منه في

النهاية، ولهذا تجد الكثيرين يهيمن عليهم الهدوء في الكبر بعد أن ساقهم الغل وهيمنت عليهم الغيرة في الصغر، وبعد أن سحق الطمع روحانيتهم التي كانت قادرة علي الوصول بهم إلي بر الأمان، لكن الأمر ممكن مع الكبر، نعم، من الممكن للمرء أن يستحضر أجواء الروحانية قدر الإمكان، حتي ولو لم يقترب منها في صغره، من الممكن أن يطورها قدر الإمكان، لعله يصل إلي ما يجب الوصول إليه.

رأتني الزوجة منغمسا في أفكاري أتنقل بينها دون هوادة، فأحضرت فيلما مميزا أخذنا في جولة ساحرة، وقد كان فيلما قديما، لكنه استحضر الكثير من التنبؤات التي خصت العصر الحديث، وقد كان صادقا بشدة، وكان قادرا على رصد الكثير من الملامح التي صارت ظاهرة في عصرنا الحالي، فكيف تنبأ بذلك؟ وكيف توصل إلى كل هذه الملامح التي لم تكن لها بوادر وقتها؟

وقد تابعت أفكاري بعد ذلك، وأخبرت نفسي بأن الإنسان يربط نفسه بشيء صعب قد يظهر القيمة، مهما كانت ماهية الشيء، فما يهمه أن يكون صعبا، ولو كان سهلا، لرأي أن الأمر لا يستحق، وهو ما يثير السخرية في الأرجاء، لأن سهولة العبور تتطلب ألا نربط أنفسنا بأمور صعبة، ورغم ذلك هناك أوقات يكون من الصعب فيها التملص أو الهروب، خاصة عندما يكون هناك مسار قد تم إعداده من أجل الوصول إلى نقطة معينة، وهو ما يجعل المهرب وهما وخيالا.

إننا نحاول أن نظهر أكثر البدع والحركات البهلوانية صعوبة كي نبهر الجميع ونبهر أنفسنا، إننا نحاول أن نلهو بداخل السيرك ونقدم أكثر الحركات مرونة وإبهارا، لكن لو تأملنا عناء الأمر، لأدركنا

أن الجمهور متغير، ولعلمنا أن الجمهور لا يعبأ سوي بلحظة العرض، وبعد ذلك ينسي من قدموه، لأنهم كثيرون، كثيرون، كثيرون جدا!

-٣٧-

خرجت مجددا إلى الحديقة، خرجت مفعما بالأمل والتفاؤل، خرجت وتأملت كل ما يحوطني، كانت الشمس قد أوشكت على الغروب، وكانت الأجواء متأرجحة، إلا إنني كنت صامدا قادرا على الوقوف أمام كل المتغيرات، لكن التغيرات تؤثر علينا تدريجيا، وفي النهاية نصبح عاجزين عن مواكبتها، لكن من الضروري التركيز على اللحظة، ومن الضروري أن نوازن بين الهيدونية والعملية، ومن المهم أن ندرك أن اللحظة بمثابة السيد وبأن الحياة بأكملها لا تمثل سوي لحظة، نعم مجرد لحظة، لحظة فحسب.

إن السيرك كبير ومفعم بالكثير من الأشكال والألوان والحركات البهلوانية التي لا تحصي، ولكل حركة فن معين، ومن يعجز عن التعبير عن فنه، يخبرنا بأنه يعرف كل الفنون، رغم أنه واهم، فلكل حركة فن يجب أن يعلم وأن يدرس وأن تفهم مدرسته جيدا، لكنه يحاول أن يعوض عبر التقليل والتحدث بشمول، ولو أدركنا الحركات البهلوانية وتعددها، وصلنا إلى الكثير من النقاط المهمة.

إن كل حركة تهدف إلى إرضاء غرور صاحبها، وفي الوقت عينه إرضاء أعين من يحوطونه، ولكن الجمهور متغير، والجمهور متصل باللحظة، ولو جاءت أجيال جديدة ورأت المشهد القديم مسجلا، لصفقوا، لكنهم لن يصفقوا بحرارة كما يصفقون للجديد، وهو ما يمثل سنة الحياة، فالقديم ينسي حتى ولو ذكر، والجديد يهيمن حتى ولو كان هشا، ولكن هل تستحق الحركات البهلوانية كل هذا الصراع؟ هل تستحق كل هذا التعلم؟

إن هذه الحركات تحتاج إلى فترات طويلة، تحتاج إلى عقود في أحيان كثيرة، والجمهور متغير، الجمهور محدود، الجمهور يشعر بالملل ويرغب في التجديد باستمرار، والجمهور نفسه يريد أن يقدم حركاته الخاصة، وفي وقت محدد، لا يعبأ سوي بحركاته وحده، حركاته وحده، لأنه ببساطة يدرك أن الحياة سريعة والوقت محدود، ولهذا من الضروري أن يعبر عن نفسه هو الآخر.

تقديم الحركات البهلوانية في حد ذاتها يتطلب مجهودا كبيرا، ويسعي نحو إرضاء غرور الفرد وغرور عائلته، وبهذه الصورة يصبح الأمر معقدا، فالفرد يتحدث باسم الجماعة، لكن إذا تأملنا الأمر عن كثب، لأدركنا أن الكل يعيش في وهم عميق، ولفهمنا أن الحركات البهلوانية لا تمثل سوي وسيلة لسد الفراغ وتمرير الوقت، ورغم ذلك من الضروري أن نتعلمها حتى لا نشت وكي نسير في الطريق الصحيح.

انتهت الأفكار، أسرعت بالعودة إلى الداخل، وقد نمنا نوما عميقا، وتنقلنا بين الأحلام والأوهام، وكانت جزيرة النوم وقتها مفعمة بالكثيرين، كانت تضج بالعديدين، كانت تشمل الجميع وترحب بالكل، كمهرب بكل تأكيد.

-٣٨-

الفصل الأخير (حلم غريب)

وجدت شبانا يرسلون من الناي أجمل الأنغام، وجدت عروضا كثيرة وأفكارا عديدة، وجدت دوحة عظيمة، كان هناك الكثيرون، كانوا يطوفون حولها ويقدمون العروض الغريبة، تلك العروض التي أذهلتني في البداية واعتدت شأنها في النهاية، وقد جاءني رجل طويل، وأخبرني بأن لكل إنسان خازوقه، وأن هناك من يكون خازوقه ظاهرا وهناك من يكون خازوقه مختبئا، وقد ضحكت لما سمعت وتجاهلت ما قال وأسرعت بالتحرك بين جوانب السيرك الممتدة والهشة.

إن السيرك كبير، والجمهور متغير، ومن يقدمون العروض متغيرون أيضا، وقد صدرت الكثير من الكتب التي رصدت العروض واعتبرت إرثا، إلا أن معظمها لم يرصد شيئا مهما ولم يقدم سوي الخيال ومحاولة الاقتراب، لا أكثر ولا أقل، فقد ظننا أنها قد مثلت المعرفة، لكنها لم تمثل، فقد كانت بشرية مغلوطة، كانت بشرية تحاول الاقتراب، وقد رأيت شخوصا ورجالا ونساء، كان الكل يحاول تقديم العروض، لكن هناك من فشل في ذلك، ومن فشل بصورة ملحوظة، أخبرنا بأنه كان قادرا على إجادة كل أنواع العروض، رغم أنه لم يقدم عرضا واحدا قط.

وهناك من أوهمنا بأنه قد قدم العرض، رغم أنه لم يقدم شيئا، وهناك عروض رغبنا في فهمها والتعرف إلى أفكارها وفنونها، لكننا بعد

ذلك، ابتعدنا عنها، ورغبنا في لو أننا لم نعرف عنها شيئا قط، فالعروض منهكة مع الوقت، وقد تؤدي إلى الكثير من الترسبات التي لا تحصي.

هناك عروض كان من الأحرى لأصحابها الرجوع والإنابة، لكنهم فضلوا الضلالة، وهناك عروض لم يكن لها طائل، وهناك عروض جذبتنا في البداية لكننا لفظناها في النهاية، وهناك عروض ألهمتنا الكثير لكنها لم تثمر إلا لفترة قصيرة، وقد كنت سعيدا بالتنقل بين العروض المختلفة، وكنت أصفق للجميع، وحينما حان موعد عرضي، أخبرتهم بأن عرضي غريب هجين مفعم بكل ما هو عجيب، وقد قدمت العرض بصورة رائعة، وصفقوا بحرارة من أجلي، لكن جو السيرك نفسه أشعرني بأننا كنا نعيش الخيال، وقد كنت أحس بالوهم في كل لحظة، وهو ما جعل عرضي مضطربا بين الحين والآخر.

كانت النساء تقدم العروض بشكل غريب، كان التعري مثيرا للسخرية، ولم يعد ذا أهمية لأن العرض المكثف يجعل الأمر عاديا، وقد جاءت واحدة منهن وأخبرتني بأن العرض يحتاج إلى مجهود ووضحت لي أن العرض بمثابة الوهم والخيال وأن الفرض بمثابة الحقيقة القابعة وراء الكلام، فضحكت كثيرا واتفقت معها، لكن ما استغربته كمن في فلسفتها التي عرضتها رغم بساطتها المطلة على السطح.

إن السيرك كبير، والجمهور متغير، ومن يقدمون العروض متغيرون أيضا، وقد صدرت الكثير من الكتب التي رصدت العروض واعتبرت إرثا، إلا أن معظمها لم يرصد شيئا مهما ولم يقدم سوي الخيال ومحاولة الاقتراب، لا أكثر ولا أقل، فقد ظننا أنها قد مثلت المعرفة، لكنها لم تمثل، فقد كانت بشرية مغلوطة، كانت بشرية تحاول الاقتراب، وقد رأيت شخوصا ورجالا ونساء، كان الكل يحاول تقديم العروض، لكن هناك من فشل في ذلك، ومن فشل بصورة ملحوظة، أخبرنا بأنه كان قادرا على إجادة كل أنواع العروض، رغم أنه لم يقدم عرضا واحدا قط.

كان الحلم غريبا، كنت أتنقل بين الكثير من الأماكن، وكانت كلها جزءا من السيرك، كان عملاقا في نظرنا، لكنه لم يمثل سوي سيرك، وقد كانت الرؤية ضبابية في كثير من الأحيان، وكنت أتنقل دون هوادة، وكانت زوجتي تظهر في الكثير من الفقرات لتقدم عروضا فنية من الطراز الرفيع، وكنت أصفق من أجلها بحرارة، كنت أصفق من أجلها ومن أجل رفيقاتها أيضا، إلا أن الأولوية كانت لها بكل تأكيد.

رأيت عروضا غريبة للغاية، حاولت فهمها فعجزت، ورأيت عروضا بدأت مستقرة ثم اضطربت، ورأيت عروضا مشحونة بغرور نام في النهاية، ورأيت عروضا بدأت بغرور وسقطت إلى الأسفل دون توقف، ووجدت رجالا أظهروا قدرتهم على تقديم العروض المستمرة، إلا أنهم قد توقفوا في النهاية بعد أن خارت قواهم، وقد دخلت ساحة واسعة كانت تشبه البستان، ورأيت الكثير من الأشجار، وعندما اقتربت، وجدت رجلا يحدث جمعا حاشدا عن أمور غريبة، وكان يتطرق إلى الماورائية بشكل مريب.

لكن بمجرد أن اقتربت منه، فر، وأخذ يجري دون هوادة، إلا إنني قد تجاهلته وأسرعت بالعودة إلى منطقتي، وقد قدمت عرضا امتد لساعات، لكنه انتهي بشكل مريب، فقد كانت النهاية جيدة لكنها لم تكن مناسبة، وهو ما يعد أمرا دارجا فيما يخص العديد من العروض.

إن السيرك كبير، والجمهور متغير، ومن يقدمون العروض متغيرون أيضا، وقد صدرت الكثير من الكتب التي رصدت العروض واعتبرت إرثا، إلا أن معظمها لم يرصد شيئا مهما ولم يقدم سوي الخيال ومحاولة الاقتراب، لا أكثر ولا أقل، فقد ظننا أنها قد مثلت المعرفة، لكنها لم تمثل، فقد كانت بشرية مغلوطة، كانت بشرية تحاول الاقتراب، وقد رأيت شخوصا ورجالا ونساء، كان الكل يحاول تقديم العروض، لكن هناك من فشل في ذلك، ومن فشل بصورة ملحوظة، أخبرنا بأنه كان قادرا على إجادة كل أنواع العروض، رغم أنه لم يقدم عرضا واحدا قط.

شخوص، شجيرات، شذرات، أفكار، وعي، شمس تظهر في الأفق، تغيب، تظهر مجددا، تغيب، تظهر من جديد، قمر يضحك ثم يبكي ثم يضحك ثم يبكي ثم يضحك، صراعات كثيرة وعروض عديدة، رجال يتشاجرون ونساء في صراع دائم، رجل يطارد امرأة ويتبعها بأخري ثم بثالثة، رغم أن كلهن واحدة والطاقة ذات أجل، رجل يجري وراء المال، ويرغب في المزيد مهما كانت مكتسباته، رغم أن الأمر واحد، فالتجربة داخلية قبل أن تكون خارجية، والعرض داخلي قبل أن يكون خارجيا، وإلقاء الظلال النفسية علي الآخرين خطأ كبير، والرغبة الدائمة في تقديم العروض أمر مرهق، وكثيرا

ما رصدت، أيها الإنسان، شرور الآخرين ونسيت شرك، والخير والفضيلة طريق نجاتك.

إن السيرك كبير، والجمهور متغير، ومن يقدمون العروض متغيرون أيضا، وقد صدرت الكثير من الكتب التي رصدت العروض واعتبرت إرثا، إلا أن معظمها لم يرصد شيئا مهما ولم يقدم سوي الخيال ومحاولة الاقتراب، لا أكثر ولا أقل، فقد ظننا أنها قد مثلت المعرفة، لكنها لم تمثل، فقد كانت بشرية مغلوطة، كانت بشرية تحاول الاقتراب، وقد رأيت شخوصا ورجالا ونساء، كان الكل يحاول تقديم العروض، لكن هناك من فشل في ذلك، ومن فشل بصورة ملحوظة، أخبرنا بأنه كان قادرا على إجادة كل أنواع العروض، رغم أنه لم يقدم عرضا واحدا قط.

كان العرض مستمرا، كنت أتنقل بين العروض دون هوادة، كان التكرار ملحوظا، إلا أن الألوان كانت متنوعة وكانت مختلطة بشكل مختلف، ورغم ذلك كان الأمر يحمل الكثير من التشابهات، فقد كانت المتاهات تقود العروض، إلا أن أنواعها قد تشكلت بصورة مختلفة، وكان الأمر صعب الإدراك، وغرابة الأمر تمثلت في تحدث البعض عن معرفتهم بحقيقة عرضك، رغم أنك نفسك لا تفهم حقيقته، وهو ما مثل السخرية والهذيان.

رأيت أشخاصا منخرطين بقوة وآخرين يعانون من psychosis أو apathy أولي، رأيت أشخاصا يعمدون إلي الهروب في إصرار وآخرين يعمدون إليه بين الفينة والأخرى، رأيت رجالا أفنوا حيواتهم في تقديم العروض ولم ينالوا شيئا بعد كل هذا، ولاحظت وجود أشخاص نالوا الكثير بعد تقديم العروض لكن الطمع أدي إلي

مغادرتهم دون إرضاء الأماني التي لا تحصي، فالرغبة في تقديم العروض هوسية، رغبة لا تعرف التوقف وترغب هي نفسها في المزيد، وهو ما يثير الضحكات في الأرجاء.

إن السيرك كبير، والجمهور متغير، ومن يقدمون العروض متغيرون أيضا، وقد صدرت الكثير من الكتب التي رصدت العروض واعتبرت إرثا، إلا أن معظمها لم يرصد شيئا مهما ولم يقدم سوي الخيال ومحاولة الاقتراب، لا أكثر ولا أقل، فقد ظننا أنها قد مثلت المعرفة، لكنها لم تمثل، فقد كانت بشرية مغلوطة، كانت بشرية تحاول الاقتراب، وقد رأيت شخوصا ورجالا ونساء، كان الكل يحاول تقديم العروض، لكن هناك من فشل في ذلك، ومن فشل بصورة ملحوظة، أخبرنا بأنه كان قادرا على إجادة كل أنواع العروض، رغم أنه لم يقدم عرضا واحدا قط.

استمر السيرك دون توقف، كانت الأجواء زاهرة، لكنها كانت تخفي الكثير وراءها، وهو ما أدركته لاحقا، وقد استيقظت من نومي مبتهجا، وولجت المطبخ، وشربت بعض اللبن، وعندما عدت إلى السرير لأنام، لاحظت ظلا يلعب في الأسفل.

لقد حل الأصدقاء أصحاب الشعر الأبيض دون موعد محدد، وكان الوقت قد تجاوز منتصف الليل، وقد تعجبت من ذلك، فقد كانت الزوجة نائمة في عمق، لكنني رحبت بهم، وفتحت الباب من أجلهم.

كان الجو قارس البرودة وقتها بشكل غريب، وكانت مصابيح الشارع مضطربة، وكانت الأجواء غريبة وعجيبة، وقد جلس الأصدقاء الأربعة حول المنضدة، وجلست معهم، واستيقظت الزوجة

ورحبت بهم، لكنها سرعان ما عادت إلى نومها، أما أنا، فقد جلست معهم وشربنا اللبن وتناولنا الكعك الذهبي الجميل، وكانت رائحته مذهلة قادرة على إساحة العقول وإذابة الأبدان وملاعبة الأذهان ومباغتة الكيمياء، وقد أخبروني عن سر الحضور بغتة، وحدثوني عن حقيقة أن الشمس قد اقترب موعدها، فأخبرتهم بأنني لم أكن علي علم بذلك، وقد اضطربت قليلا لسبب لم يكن في الحسبان.

لقد كشف لي أحدهم عن رغبته في المزيد من اللبن، وقد قمت لأحضر له زجاجة أخري، وكنت أعرج بشكل غريب بينما كنت أعبر الممر كي أبلغ المطبخ.

وقد أحضرت الزجاجة واتجهت ناحيتهم كي أشاركهم جلستهم الدافئة التي لم تعرف شيئا عن الذوق، لكني قد تجاوزت من أجل الرفقة والصحبة، وبينما كنت في طريقي ناحيتهم، سقطت زجاجة اللبن من يدي فانكسرت وأحدثت ضجة جارفة، وقد استيقظت الزوجة وصرخت، بعد أن رددت (انتهي العرض أيها اللعناء .. انتهي العرض أيها اللعناء!)، وبعد أن سقطت أرضا سقوطا فجائيا لم تقم لي قائمة بعده قط.

إن السيرك كبير، والجمهور متغير، ومن يقدمون العروض متغيرون أيضا، وقد صدرت الكثير من الكتب التي رصدت العروض واعتبرت إرثا، إلا أن معظمها لم يرصد شيئا مهما ولم يقدم سوي الخيال ومحاولة الاقتراب، لا أكثر ولا أقل، فقد ظننا أنها قد مثلت المعرفة، لكنها لم تمثل، فقد كانت بشرية مغلوطة، كانت بشرية تحاول الاقتراب، وقد رأيت شخوصا ورجالا ونساء، كان الكل يحاول تقديم العروض، لكن هناك من فشل في ذلك، ومن

فشل بصورة ملحوظة، أخبرنا بأنه كان قادرا على إجادة كل أنواع العروض، رغم أنه لم يقدم عرضا واحدا قط.

(تمت)

العمل من وحي الخيال
جميع الحقوق محفوظة
دار عرفان للنشر – ٢٠٢٣
مؤسسة معتز عرفان للثقافة والفنون

معتز عرفان

- خريج كلية الإعلام
بجامعة الدول العربية AAST
وجامعة أوتونوما ببرشلونة
(امتياز مع مرتبة الشرف – من ال 25 الأوائل)

- مؤلف كتاب (الإيروسية والثاناتوسية)
ورواية (ذكريات مخرج سينمائى) وأعمال أخري

- عضو لجنة الإعلام بGSSP

- مترجم أربعة أجزاء من السلسلة الوثائقية
(كوارث كبري) وأفلام أخري علي قناة الوثائقية

- ناقد سينمائي ومحرر بعدد من المواقع الإلكترونية

- باحث في الفلسفة وعلم النفس والسينما والفنون

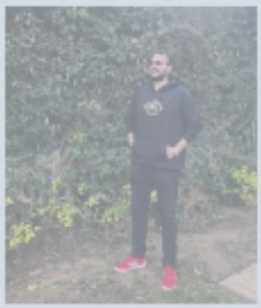

إن السيرك كبير
والجمهور متغير
ومن يقدمون العروض متغيرون أيضا !

EACA

ERFAN
MEDIA
GROUP

دار
عرفان
للنشر

2023